

# رابعة الخبز

www.hotamr.com

رعد الخبسي

## تقديم

هذه خمس عشرة قصة روسية سوفيتية توقفت عند كل منها خلال قراءاتي بالروسية معجباً متذوقاً وليس لأننى كنت أخطط لترجمة عمل ما وتأخير له مواده كما يفعل المترجمون عادة. وكنت أحس بالراحة بعد انتهائى من ترجمة هذه القصة أو تلك فى أوقات متفرقة، ثم أضعتها فى ناحية وأنساها مع أوراق أخرى كثيرة دون أن أسعى لنشرها حتى فى المجلات. هذا إلى أن بدأت فى اكتشاف "يورى كازاكوف" وعالمه المجهول لنا بالكامل تقريباً، ثم أندريه بلاتونوف. وكان الكاتبان العملاقان يخضعان مع آخرين كثيرين للحظر، والنشر بكميات محدودة للغاية تباع نسخها داخل موسكو فى الأسواق الحرة بالعملة الصعبة للأجانب فقط. حينذاك قررت أن أجمع تلك القصص لنشرها يوماً ما، لعلى ألقت نظر القارئ إلى هذين الكاتبين على الأقل.

كان تشيخوف معروفاً رغم أنه لم يترجم عن لغته الأصلية سوى مرة واحدة فى مختارات فى أربعة مجلدات بفضل جهد الأخ أبو بكر يوسف، ومع ذلك اكتشفت أن هناك بعض قصص تشيخوف ممنوعة من التداول مثل قصة "كمان روتشيلد" التى اعتبرتها الأوساط الصهيونية فى روسيا تحقيراً لليهود فحُرِصت على حذفها، وكانت هناك نصوص أخرى كاملة لعملاق آخر هو فلاديمير دستويوفسكى صاحب رواية "الأبله" و"الأخوة كارامازوف" ممنوعة من النشر مثل مقالته الشهيرة عن "المسألة اليهودية" بل وكانت العودة إلى تلك المقالة فى المكتبات تستلزم تصريحاً خاصاً وتفسيراً لدواعى قراءتها! ومع مطلع عام 1985 أوائل الـبيرسترويكا (إعادة البناء) أخذت أسماء الكتاب المحظورين تتقدم الصفوف، فقفز اسم الشاعرة أنا آخاماتوفا، وزوجها نيكولاى جوميليوف الشاعر الذى قُتل فى محاكمة صورية بتهمة ملفقة، ثم أسماء ميخائيل بلجاكوف، وميخائيل زوشنكو، وطابور كامل من كبار الكتاب كانت أفضل أعمالهم وأجمل سنوات أعمارهم حبيسة فى خزائن حديدية باتحاد الكتاب ربع قرن. ولم يعد للقارئ الروسى من هم سوى مصافحة هذا الصف الطويل الذى انبعث من الماضى ليقول الحقيقة. وكانت مأساة معظم أولئك الكتاب أن بعضهم كان من أشد المخلصين حقاً للثورة الاشتراكية، أو أنهم المخلصون لها فعلاً. وعلى سبيل المثال فقد عاش أندريه بلاتونوف حياة فقيرة اضطرته للتخلى مبكراً عن المدرسة من أجل إطعام أخوته. وتقلب بلاتونوف فى مختلف المهن، وكان يخرج ببذلة واحدة لا يبدلها. وتمكن الكاتب العملاق على مدى ربع قرن من خلق عالم كامل تألق فى مئات القصص القصيرة النادرة المثال، وأربع مسرحيات، وتسع قصص طويلة. وفيما بعد اعترف الروائى العالمى أرنست همنجواى أنه لم يكن ليكتب "العجوز والبحر" من دون أن يقرأ أندريه بلاتونوف! وكان بلاتونوف أول من كشف عن "عدم بساطة البسطاء" الذين يجرى اختصارهم أحياناً كثيرة فى صور بشر يسعون من أجل خبزهم، مؤكداً أن كل إنسان وجه لا يتكرر ولغز ينبغى حله. وتوفى بلاتونوف فقيراً ومحظوراً بعد أن شن النقد الرسمى عليه حملة متهماً إياه بأنه "يلهث وراء التجديد مهما

تكلف ذلك، ويكتب بشكل معقد بدلاً من البساطة والوضوح" رغم أنه في اعتقادي أجدر الأسماء في تاريخ القصة الروسية بالانتباه بعد أنطون تشيخوف.

هناك كتاب آخرون مثل ميخائيل زوشنكو الذي كان يسخر بلا هوادة من كافة الظواهر السلبية فأجبرته الدولة على الصمت بعد أن شنت حملتها على المبدعين والعلماء عام 1937 فكف عن الكتابة وانكسرت روح السخرية مفسحة المجال فقط للمرارة العميقة.

وعلاوة على ذلك تضم هذه المجموعة نماذج من أفضل أعمال رواد كبار لمدارس أدبية مختلفة مثل قنسطنطين باوستوفسكى برومانسيته الرقيقة ونفوره من الجلافة التي تسود الحياة اليومية، وهناك من رواد الواقعية التقليدية العملاق إيفان بونين، وألكسى ريميزوف ويورى تيريتينوف اللذان ينتميان للاتجاهات الحديثة. لكنى أرجو القارئ أن يتوقف باهتمام عند اندريه بلاتونوف وقصة "أوليا"، وكذلك عند يورى كازاكوف الذي نقدم له قصتين "رائحة الخبز" و"كان بكاؤك في الحلم مريراً".

وقد أنهى كازاكوف دراسته في معهد جوركي للأدب عام 1958، وفي نفس العام صدرت له مجموعته القصصية الأولى "مانكا"، ثم مجموعته الثانية "عند محطة القطار" عام 1959، ويكشف كازاكوف عن اهتمام خاص بالطبيعة يعيد إلى الأذهان الصفحات الرائعة التي خطها تورجنيف. مع ذلك فإن هم كازاكوف الأول هو ذلك الجزء الواعي من الطبيعة أى الإنسان. وفي رائعته "كان بكاؤك في الحلم مريراً" سيرتطم القارى بعنف بكل ما هو مؤلم في حقيقة ميلاد الإنسان وموته. هذه القصة تدفعك بالقدرة على النقاط التفاصيل والدقة المذهلة في وصفها إلى تذكر قطع الحرير الصغيرة التي يخرقون فوقها مدينة كاملة بأعمدتها ونسائها وعرياتها، فتنتظر إليها مندهشاً: كيف يمكن الاحتفاظ بذلك العالم المنمنم حياً ومكتفياً إلى هذه الدرجة؟ وما الذى قاد بطل هذه القصة تحديداً إلى الانتحار؟ ومن أين يتدفق كل هذا الحزن وكل هذه الشاعرية؟

ذات يوم قال أبو طالب غفوروف وهو شاعر داغستانى كبير: "لا تطلق رصاص مسدسك على الماضى، لكى لا يفتح المستقبل عليك نيران مدافعه". وقد أثبتت القصص والقصائد التى ظلت ممنوعة لسنوات طويلة أنها قادرة على البقاء أبعد من البشر، ومن الدول، لأنها تحتزن أجمل ما فى الحياة: الأحلام.

## رائحة الخبز

وصلتهم البرقية فى الأول من يناير. كانت دوسيا فى المطبخ حينذاك، فاتجه زوجها ليفتح باب الشقة: فى ملابسه الداخلية، مخدراً من جرعة الخمر الصباحية، لا يستطيع أن يقاوم التثاؤب، وقع باستلام البرقية وهو يفكر: ممن يمكن أن تكون هذه التهئة؟. وهكذا، وهو يتشاءب انتهى من قراءة تلك البرقية القصيرة التى تعزیه فى وفاة والدة دوسيا: العجوز التى تناهز السبعين فى القرية النائبة.

"ليس هذا وقتها!". فكر مفزوعاً، ونادى زوجته. لم تبك دوسيا، فقط أصبح لونها شاحباً قليلاً، واتجهت بعد ذلك إلى الغرفة عدلت من وضع المفرش على المنضدة وجلست. وألقى زوجها نظرة زائغة على بقايا الخمر فى الزجاجاة القائمة على المنضدة، وصب لنفسه وعب. ثم فكر، وصب لدوسيا كأساً. قال لها:

- اشربى! يخرب بيت رأسى سينفجر. أوه.. أوه. سنلحقها جميعاً. ماذا ستفعلين؟ هل ستذهبين إلى القرية؟

لذمت دوسيا الصمت، ومسحت المفرش بباطن يدها، ثم تجرعت الكأس، واتجهت إلى السرير كالعماة، ووقدت. وبعد دقيقة صمت تمتمت:

. لا أدرى.

اقترب زوجها منها وتطلع إلى بدنها المكور الممتلئ.

. طيب.. ما العمل؟ ما الذى يسعنا عمله! . لم يدر بعد ذلك ما الذى يمكن قوله، فعاد إلى المنضدة وصب لنفسه كأساً أخرى: . لها الجنة. مسيرنا كلنا إلى هناك.

ظلت دوسيا طيلة اليوم تتمشى هامدة داخل الشقة. رأسها مصدع، ولم تقم بزيارة من ينتظرونها. ساورتها الرغبة فى البكاء، ولكنها لم تستطع البكاء، كانت ببساطة حزينة فحسب. لم تر دوسيا أمها منذ خمس عشرة سنة، وكانت قد غادرت القرية قبل ذلك ولم تعد تتذكر أبداً . تقريباً . شيئاً من حياتها الماضية. وعندما كانت تتذكر شيئاً كان ذلك على الأغلب من طفولتها المبكرة، أو لحظات مرافقة الشباب لها من نادى القرية إلى البيت عندما كانت شابة.

أخذت دوسيا تقلب الصور القديمة، ومن جديد لم تستطع البكاء: كان وجه أمها فى كل الصور متوتراً وغريباً، وعيناها جاحظتين، وذراعاها الثقيلتان الغامقتان مسدلتيْن إلى جنبيها.

فى الليل تحدثت دوسيا طويلاً مع زوجها، وهى راقدة على السرير، ثم قالت له قرب النهاية:

- لن أسافر إلى القرية! إلى أين أذهب؟ الجو بارد هناك الآن.. أما الأشياء البالية الباقية هناك فالأرجح أن أقاربنا قد تخاطفوها. أقاربنا هناك كثيرون بما يكفى. كلا.. لن أسافر!

. 2 .

انقضى الشتاء، ونسيت دوسيا أمها. وكان زوجها يعمل بشكل جيد، وانغمس الاثنان فى غبطة، وصارت دوسيا أجمل وأكثر امتلاء. لكن مع حلول شهر مايو تلقت دوسيا خطاباً من ميشا ابن أختها. وكان واضحاً من خط ميشا المائل على الورق أن أحداً من الكبار أملى عليه الخطاب. نقل ميشا لخالته دوسيا التحايا من الأقارب الكثيرين وكتب أن بيت جدته وأشياءها فى الحفظ والصون وأنه لايد من حضور دوسيا إلى القرية.

قال لها زوجها:

- سافرى! اذهبي. ولا تجهدى نفسك، بيعى كل الأشياء التى ستجدينها هناك بسرعة، وإلا فإن الآخرين سيستخدمونها، أو أن الكلخوز سيضع يده عليها.

وسافرت دوسيا. لم تكن قد سافرت منذ زمن بعيد إلى أى مكان. وكانت المسافة طويلة، فتمكنت كما ينبغى من الاستمتاع بالطريق، وتحدثت وتعرفت إلى كثيرين فى القطار. ومع أنها أرسلت برقية إلا أن أحداً لم يكن فى استقبالها. واضطرت إلى السير على قدميها، لكنها وجدت متعة فى ذلك. كان الطريق مرصوفاً متساوياً امتدت على جانبيه حقول اقليم سمولينسك العريزة محفوفة عند الأفق بأحراش سماوية اللون.

وبلغت دوسيا قريتها بعد ثلاث ساعات، وتوقفت عند الجسر الجديد المقام فوق النهر وتطلعت أمامها. كبرت القرية بشكل ملحوظ، وانتشرت بعرضها المزارع إلى درجة كان من الصعب معها التعرف إلى القرية. ولم تسترح دوسيا إلى ذلك التغيير. مضت بعد ذلك فى الشارع تتفحص وجوه المارة فى طريقها، وتحاول أن تخمن من عساهم أن يكونوا. لكنها لم تتعرف إلى وجه أحد. إلا أن الكثيرين تعرفوا عليها، وتوقفوا، وأعربوا عن دهشتهم لأنها كبرت هكذا.

وسعدت الأخت بقدم دوسيا، بكت قليلاً ثم هرعت تعد سيماور الشاي. وأخذت دوسيا تخرج الهدايا الصغيرة من حقيبتها. ونظرت الأخت إلى الهدايا ثم سألت دموعها مرة أخرى واحتضنت دوسيا. أما ميشا الصغير فكان جالساً على الكنبه مندهشاً: لم تبكيان؟

وجلست الأختان تحتسيان الشاي، وعلمت دوسيا أن الأقارب قد تقاسموا فيما بينهم الكثير من الأشياء التي تركتها أمها. أختها أخذت الخنزير، والبقرات الثلاث، والماعز، والدجاج. فى البداية تضايقت دوسيا. فى نفسها. ثم نسيت، ولاسيما أن الكثير ما زال موجوداً، وخاصة البيت نفسه. وبعد أن انتهت الأختان من شرب الشاي وشبعنا من الحديث اتجهت الاثنتان إلى البيت لمشاهدته. وكانت الضيعة الصغيرة الملحقة بالبيت محروثة. اندهشت دوسيا، لكن أختها قالت إن الجيران هم الذين حرثوها لكى لا تضيع فرصة غرسها. ولم تجد دوسيا البيت بالوسع الذى تصورته والذى تذكره به. كانت الشبايبك مسمرة بالأواح خشبية، ومن الباب تدلى قفل حديدى. ظلت الأخت تحاول طويلاً فتح القفل، ثم تقدمت دوسيا تجرب، ثم أختها مرة أخرى، وتعبت الأختان حتى فتحتا القفل.

كانت الظلمة تعم البيت، والضوء يتسرب بالكاد من الشبايبك عبر الألواح الخشبية، والرطوبة تنتشع من جو البيت الذى بدا مهجوراً، إلا أن المكان كان يعبق برائحة الخبز: الرائحة المقربة للنفس منذ الطفولة. ودق قلب دوسيا. وراحت تذرع أرض الغرفة، تجول فيما حولها بعينيهما اللتين أخذتا تعتادان العتمة. كان السقف منخفضاً بطلاء بنى غامق، والصور مازالت معلقة على الجدران، ولكن الأيقونات اختفت ماعدا واحدة، واختفت المفارش المطرزة من فوق المدفأة والصناديق.

عندما صارت دوسيا وحدها فى البيت فتحت أحد الصناديق فانبعث منه عطر أمها. فى الصندوق طويت جونلات قديمة غامقة اللون، وفساتين بلا أكمام ومعطف حائل اللون من صوف الخرفان. أخرجت دوسيا كل هذا، ألقت عليه نظرة، ثم خرجت من البيت ودارت حوله، وحدقت فى الحوش الفارغ، وبدا لها أنها شاهدت كل هذا من زمن بعيد فى حلم ما، وأنها تعود الآن إلى ذلك الحلم.

. 3 .

تدفق الجيران على دوسيا ما أن سمعوا أنها تبيع لوازم البيت. كانوا يقبلون ويتفحصون كل شىء بدقة، ولكن دوسيا لم تكن تطلب الكثير، ولذلك بيعت الأشياء بسرعة. المهم هو البيت! وعرفت دوسيا بأسعار البيوت، ودهشت، وأحست بالسعادة لارتفاع أثمان البيوت. وعلى الفور وجدت ثلاثة مشترين، اثنين من نفس القرية، والآخر من قرية مجاورة. لكن دوسيا لم تتسرع فى بيع البيت. كانت تخشى أن تكون أمها قد أخفت بعض المال فى مكان ما بالبيت. وفتشت عن ذلك المال ثلاثة أيام متصلة: دقت على الجدران، وتحسست مراتب النوم، وهبطت إلى القبو،

وصعدت إلى العلية، لكنها لم تجد شيئاً. وعندما اتفقت دوسيا مع المشتري على السعر اتجهت إلى إدارة المنطقة، وسجلت عقد البيع في الشهر العقاري، ثم أودعت المبلغ في دفتر توفير، وعادت بعد ذلك إلى القرية محملة ببعض الهدايا لأختها، ثم أخذت تهيئ نفسها للسفر إلى موسكو.

عصر ذلك اليوم اتجهت الأخت إلى المزرعة بينما تأهبت دوسيا لزيارة قبر أمها بصحبة ميشا الصغير. كانت السماء مغطاة بغيوم كثيفة تفرقت مع حلول المساء، ما عدا أفق تلك الناحية التي سارت صوبها دوسيا وميشا، فقد ظلت عالقة هناك سلسلة سحب رصاصية متوردة، بعيدة وغائمة كأنها وراء الشمس.

على بعد كيلومترين من القرية التف النهر بشدة في شكل أنشودة، وعلى الشط الأيمن المرتفع قامت المدافن كأنما في قلب شبه جزيرة. في وقت ما كانت تلك المدافن محاطة بجدار من الطوب الأحمر، وكانوا يدخلونها من بوابة عالية مقوسة، وبعد الحرب استخدموا طوب الجدار المنهار في البناء، ولسبب ما أبقوا فقط على تلك البوابة، وتفرعت الطرق إلى المدافن من كل ناحية.

في الطريق استفسرت دوسيا من ميشا. بهدوء وحرص. عن المدرسة التي يتعلم فيها، وأيام العمل في الكخوز، ورئيس الكخوز، والمحاصيل، إلى أن لاحت معالم المدافن القديمة مضاءة باحمرار الشمس المنخفضة. وعلى جانبي المدافن حيث ارتفعت الجدران يوماً ما ونمت أشجار الورد البري، تزامت المقابر القديمة جداً التي فقدت منذ زمن بعيد هيئة المقابر. وغير بعيد ارتفعت بين الأحراش جدران مطلية حديثاً برزت وسطها شواهد خشبية قصيرة على القبور الجماعية لشهداء الحرب..

وتجنبت دوسيا وميشا المرور من البوابة، وانعطفاً يميناً، ثم يساراً. وبين أشجار البتولا المزهرة، والأحراش التي يفوح عبرها بحة، بهت لون دوسيا شيئاً فشيئاً، وانفتح فمها قليلاً.

. هذا قبر جدتي.

قال ميشا. وشاهدت دوسيا ركام قبر كساح عشب نادر حاد الطرف برز من الطين الجاف. ورأت دوسيا صليباً خشبياً بلون رمادي مشوب بالزرقة يرتفع في الجو منحرفاً، لم يعده أحد لموضعه منذ ذلك الشتاء الذي دفنوا فيه الأم. وصار لون دوسيا أقرب إلى البياض، وأحست فجأة كأنها تلقت طعنة خنجر أسفل صدرها في القلب تماماً. ولطمت روحها كأبة سوداء، فأحست أنها تختنق، وارتجفت، ثم صرخت مهتاجة، ووقعت على الأرض زاحفة على ركبتيها نحو القبر وأجهشت في بكاء حار وكلمات لا يدري أحد من أين جاءت حتى أن ميشا أحس بالفزع. ولولت دوسيا بصوت خفيض:

. آه.. آه.. آه..

ثم سقطت على القبر بوجهها، وغرست أصابعها بعيداً فى الأرض الرطبة:

. يا أمى يا حبيبتى.. يا أمى.. يا من لا مثيل لك.. آه.. لن ألقاك فى هذه الدنيا بعد، لن ألقاك أبداً. أبداً. كيف سأعيش بدونك؟ من الذى سيدلنى؟ من الذى سيطمئننى؟ يا أمى.. يا أمى.. كيف تفعلين هذا؟  
وبكى ميشا من الخوف وصاح وهو يجذبها من أطراف كمها:

. خالتى دوسيا.. يا خالتى.

وتحشرج صوت دوسيا، وأخذت تقوس ظهرها، ثم راحت تخبط القبر برأسها. وانطلق ميشا هارباً نحو القرية.

بعد ساعة حينما عمت الظلمة العميقة هرع البعض من القرية إلى دوسيا. ووجدوها راقدة فى نفس المكان لا تعى شيئاً، لم تعد تستطيع البكاء، أو الحديث، أو التفكير، فقط كانت تنن من بين أسنانها التى أطبقت عليها بشدة. وكان وجهها أسود من تراب الأرض مرعباً.

أوقفوها، ودلكوا لها صدغيها، وأخذوا يطمئنونها، يقنعونها، وساقوها إلى البيت، ولم تكن تدرك شيئاً مما حولها، كانت تتطلع إلى المحيطين بها بعينين كبيرتين متورمتين، وبدا لها أن الحياة ليل. وعندما أوصلوها إلى أختها فى البيت مشت حتى السرير بالكاد وتهاوت فوقه ونامت على الفور.

فى اليوم التالى عندما تأهبت دوسيا للسفر إلى موسكو، احتست الشاى مع أختها عند الوداع. وكانت مرحة، وحكت عن شقتها الرائعة فى موسكو، ووسائل الراحة المتوفرة بها.

هكذا سافرت دوسيا مرحة، ورضينة، كما أنها منحت ميشا عشرة روبلات.

بعد أسبوعين فتحوا بيت الأم العجوز، مسحوا الأرض، ونقلوا الأثاث إليه.. وأخذ أناس جدد يعيشون هناك.

\*\*\*



## كان بكاؤك فى الحلم مريراً

كان يوماً من أيام الصيف الدافئة.

إلى جنب بيتنا، وقفْتُ مع صديقى نتبادل الحديث، بينما تمشيت أنت قربنا، وسط أعشاب وزهور تطول كتفيك. وحيناً كنت تقعد القرفصاء لحظة، ترنو إلى صنوبرة دقيقة، أو عود عشب، وقد لانت على وجهك نصف بسمة لا تفارقه، نصف بسمة لم تفصح عن مكنونها، حاولتُ كثيراً أن أدرك مغزاها، لكن بلا جدوى.

وبين وقت وآخر، كان كلبنا "تشيف" يركض نحونا، فلما أتعبه الجرى بين أحرش التوت توقف بين ذراعيك وقد حاد عن مواجهتك قليلاً، ثم شب بكتفيه نحوك كذئب، شاخصاً إليك بعينين قهوائيتى اللون، متوسلاً إليك وهو يلوى رقبته بجهد أن ترمقه بنظرة رقيقة. وكان . إذا تطلعت إليه . يجثو فى الحال على قائمته الأماميتين، ويهز ذيله القصير فى الهواء وهو ينبح نباحاً مكتوماً. ولا أدرى لماذا كنت تتهيب "تشيف"، فحين وقف قبالتك، درت من حوله بحذر، واتجهت إلى، وأحطت ركبتي بذراعيك، ثم رفعت رأسك متطلعاً نحو عينين زرقاوين تعكسان السماء، وتمتمت برقة وفرحة كأنك وصلت لتوك من مكان بعيد: "بابا".

وحين التفت يداك الصغيرتان حول ساقى شعرت بعذوبة من الألم تغمرنى.

وبدا أن صديقى قد ارتجف لأنك طوقتني هكذا فجأة، فانقطع عن الحديث بغتة، ومد يده وداعب بأصابعه شعر رأسك المهوش، وتأملك برهة..

الآن، لن يرمقك ذاك الصديق بنظرته الحانية، ولن يخاطبك أبداً، لأنه لم يعد موجوداً فى هذه الدنيا بعد، أنت أيضاً لن تتذكره بطبيعة الحال، كما أنك لن تتذكر أشياء أخرى كثيرة. لقد أطلق النار على نفسه فى نهاية الخريف عند بدايات سقوط الثلوج الأولى.. ترى هل شاهدتها؟ هل ألقى نظرة من خلال زجاج الشرفة على المنطقة التى امتدت أمامه وقد أصابها الصمم فجأة؟ أم أنه أطلق النار على نفسه قبل ذلك.. فى المساء؟. وهل تساقطت الثلوج فى اليوم السابق لما جرى، أم أن الأرض كانت سوداء حين هبط من قطار الضواحي، واتخذ طريقه إلى بيته كماض إلى ساحة إعدامه؟.

حقاً، ألا يسوقنا هبوط الثلوج الأولى إلى روح السكينة ومزاج الكآبة؟، ويسلمنا إلى وجوم شوارد الأفكار المتأنية الراكدة؟

متى؟ فى أية دقيقة؟ تملكته تلك الفكرة المؤسفة، المروعة، ثم راحت تطارده؟ الأغلب أن ذلك الخاطر قد طرأ له منذ زمن بعيد. أكثر من مرة صارحنى بالوحشة التى تنتابه مع بداية الربيع ونهاية الخريف، حينما يكون وحده بداره الريفية، فينزع إلى وضع حد لكل شىء، دفعة واحدة بإطلاق النار على نفسه.. ولكن من الذى لا تقلت منه مثل هذه الأحاديث لحظة الوحشة؟

لقد اعتصرته ليال مرهقة، لم يذق فيها طعم النوم، وقد بدا له طيلة الوقت أن أحداً يتسلل إلى البيت، يشيع فيه أنفاس البرودة، مبتغياً أن يسلبه ليه. كان الموت قد اندس إليه.

رجانى ذات يوم: أستحلفك بالله أن تعطينى بعض الطلقات النارية لقد استنفدت ما كان عندى، ويخيل لى أن أحداً يجوس فى البيت ليلاً.. بينما يسود البيت هدوء مطبق كأنى بين المدافن.. أنفهم قصدى؟ الآن.. هل ستعطينى؟

أعطيته ست طلقات، وقلت له ضاحكاً: لعلها تكفيك.

كان لا يكف عن العمل المتصل، الدعوب، وكانت حياته المتقدة بالنشاط، تجعلنى أشعر بالتقصير دائماً. وكنت إذا زرته فى أى وقت تجده مشغولاً بعمله، فإن كان الوقت صيفاً تدخل إلى بيته من ناحية الشرفة، وترفع رأسك متجهاً ببصرك إلى عليّة البيت، نحو النافذة المفتوحة، ثم تنادى دون زعيق: "ميتيا". وسرعان ما يوافقك صوته: "آها". ويلوح وجهه فى النافذة، ويظل دقيقة كاملة يتأملك بنظرة غائبة وراء ضباب، ثم تبدو على وجهه بسمة واهنة ويشير بيده النحيقة قائلاً: "الآن"، ويهبط من الدور العلوى إلى الدور الأرضى حيث تمتد شرفة البيت، ويطل عليك مرتدياً "البلوفر" السميك، وتحس أنه يتنفس بهدوء وعمق خاص عقب فترة طويلة من العمل، فترمقه ببهجة بل وبغبطة، كما تحس وأنت تنظر إلى فرس قوى مفعم بالحيوية، تتبادل قوائمه طرق الأرض بنفاد صبره، ليطلقوا له العنان فيعدو.

كان يقول لى، إذا أصابنى مرض أو انتابنى اكتئاب:

- ما هذا؟ لماذا تتساق لنفسك هكذا؟ اتخذنى مثالا.. فأنا لا أكف عن السباحة فى نهر "ياسنوشكا" حتى فى أواخر الخريف، فلماذا أجرك راقداً أو جالساً هكذا طيلة الوقت؟. انهض وقم ببعض التمرينات الرياضية..

فى منتصف شهر أكتوبر النقيت به للمرة الأخيرة. وكان يوماً مشمساً بديعاً، جاءنى أنيقاً للغاية كعادته دوماً، معتمراً غطاء رأس من وبر منقوش، لكن شيئاً فى وجهه كان منكسراً وحزيناً. ومع ذلك، فقد تدفقت أحاديثنا فى البداية بصورة حية، وخضنا فى نقاش لا أذكر باعته عن البوذية، وتكلمنا فى أن الوقت قد حان بالفعل للبدء فى كتابة الروايات الكبيرة، وأن السعادة

الوحيدة الممكنة تتمثل فى العمل اليومى وحده، وهو أمر يصبح مستطاعاً فقط حين تعكف على كتابة عمل كبير .

راففته وهو ينصرف.

وفجأة نشج بالبكاء، وأشاح بوجهه عنى. وبعد أن هدأ قليلاً غمغم قائلاً:

- حينما كنت هكذا، مثل طفلك آليوشا، بدا لى أن السماء عالية هذا العلو، زرقاء هذه الزرقة لكنها جعلت تبهت فيما بعد، لكن ذلك بسبب تقدمى فى السن.. أليس كذلك؟ فهذه الشمس هى ذاتها التى كانت تشرق فيما مضى.. ألسنت محقاً؟ هل تدرى أنى أخشى "أبرامتسيفا"1! أخشى تلك الضاحية، فكلمة عشت بها أكثر زاد تعلقى بها، ولكن.. أليس من الإثم أن يتعلق الإنسان بمكان واحد إلى هذه الدرجة؟ لقد رفعت "آليوشا" على كتفك.. ألم تفعل؟ أنا أيضاً حملتُ أطفالى صغاراً، وحين اشتد عودهم ركبت الدراجات معهم رافقتهم، قاصدين ما يعجبنا من أمكنة فى الغابة الواسعة، وكنت أحادثهم طوال الوقت، أكلمهم عن "أبرامتسيفا"، وعن أرض "رادانيجسكى"2، متمنياً أن يتيموا بهذه الأرض، فهى إن شئت الحقيقة موطنهم، وأرضهم الأم! ويبدو أن نبات الخردل البازغ عند حواشى الطريق قد استرعى انتباهه بشدة، فغير مجرى الحديث قائلاً:

. آه.. انظر إلى هناك، انظر.. أى خردل أبيض سيظهر عما قريب!

وظفق يُسر إلى بمشاريع عمله التى أعدها للشتاء. وكانت السماء زرقاء إلى درجة مذهلة، وضاعت أوراق الخردل البيض بلون شمسى، ذهبى كثيف. توادعنا بمودة خاصة، وإحساس حميم بالصدقة.

\*\*\*

بعد ذلك بثلاثة أسابيع، عند شاطئ البحر فى "جاجرى"3، تقصف رعد السماء، ودوى، وكأنه يقصدنى، وكأن الطلقة الليلية التى دوت فى "أبرامتسيفا" قد حلقت فى سماء روسيا كلها،

<sup>1</sup> "أبرامتسيفا": ضاحية قرب مدينة "زاجورسك"، وكانت فى أواخر القرن التاسع عشر مركزاً هاماً للفنانين الروس. 1 (المترجم).

<sup>2</sup> "رادانيجيسكى": مشتقة من "رادانيج" اسم المدينة الروسية القديمة التى ظهرت ما بين القرن 14 - 16، ثم 2 اندثرت، وقامت وتوسعت مكانها مدينة "زاجورسك" التى تضم عدداً من أشهر الكنائس الروسية وغيرها من المعمارية. (المترجم). الآثار

<sup>3</sup> "جاجرى": من مدن جيورجيا، ميناء يطل على البحر الأسود. (المترجم). 3

ودوّمت حتى أدركتني عند شاطئ البحر. حينذاك . تماماً كما يعرض الآن وأنا أكتب هذه الصفحات . كان الموج يلطم الشاطئ، والبحر يزفر في الظلمة رائحته من الأعماق، وهناك بعيداً ناحية اليمين، التفتت تدور مع قوس الخليج سلسلة من الفوانيس المتألئة المنيرة.

كنت أنت قد بلغت الخامسة، جلست إلى جانبي عند الشاطئ المعتم قرب وجيب الأمواج التي غيبتها الظلمة، نصت إلى وشوشتها وإلى طقطقة الحصى الليل وهو يثب مع جزر الموج المنحسر، ولا أدري فيم كنت تفكر، كنت جالساً صامتاً، لا أعرف لماذا. أما أنا، فقد خيل لي أنني أمضي هناك.. في "أبرامتسيفا"، أمشي من محطة القطار قاصداً بيته، ولكن عبر طريق آخر غير الذي كنت أقطعه عادة، وتلاشى البحر من أمامي وتبددت جبال الليل من حولي، وقدرت في الظلمة . من الأنوار التي تضيء بعيداً . موقع البيوت القليلة. سرت في طريق مرصوف بقطع الزلط، كسته الثلوج الأولى. وحين التفت خلفي شاهدت آثار قدمي، سوداء، مطبوعة بدقة على ثلج منطفيء البياض، وتحركت متجهاً يساراً، وأخذت أخطو بمحاذاة بحيرة كابية المياه، وإن كانت حوافها منيرة. ووجدتني أتوغل في عتمة من أشجار الشربين، واستدرت إلى الناحية اليمنى فواجهني درب مسدود، حدقت قبالي مباشرة، وشاهدت داره الريفية المحمية بأشجار الشربين نوافذها مضاءة.

ولكن.. متى وقع ذلك؟ مساء.. أم ليلاً.. متى؟

تمنيتُ . لا أدري لماذا . أن تحل باكورة الفجر الخفيف لليل نوفمبر . أنه أو أنها فيه ترقب تباشير الصبح من الثلج الذي يزداد بياضاً، والشجر الذي يتحدد ويبرز من لجة الغبشة الشاملة.

ها أنا أصل إلى بيته المطوق بسور دائري وأفتح الباب الخشبي الصغير بالسور، ثم ارتقي درجات السلم، لأقف في الشرفة الفسيحة، وأرى...

سألني ذات يوم: "أسمع.. هل تعتبر طلاقات الرش ذخيرة قوية؟ أقصد إذا أطلقتها من مسافة قريبة؟".

أجبتة: "بالطبع! فلو أنك . من على بعد نصف متر . صويت على شجرة حور صغيرة، ولنقل أن ساقها بعرض ساعد اليد، فإن طلقة الرش ستجز الشجرة كحد الموسى".

مازلت تعذبني إلى الآن ذات الفكرة: ما الذي كنت سأفعله، لو أنني شاهدته حينذاك وهو جالس في الشرفة والبندقية مرتكزة إلى الأرض بين قدميه وفوهتها نحو وجهه، بينما إصبع إحدى قدميه على زنادها؟. ترى هل كنت سأحطم الباب على الفور وأكسر الزجاج وأنا أصرخ بكل صوتي إلى أبعد مدى في المنطقة؟ أم أنني كنت سأحول بصري عنه من شدة الرعب ممسكاً أنفاسي، على أمل أنه إذا لم يحس بوجودي فربما يعيد النظر . من تلقاء نفسه . فيما قرره؟ فينحي البندقية جانباً، ويحذر يؤمن بإبهامه زنادها وأخيراً يتنفس الصعداء، يتنفس بعمق.. بعمق كأنه

يفيق من كابوس، ثم يهدأ.. وينتعل خفيه..؟  
ولو أنني كسرت الباب مهشماً زجاجه واندفعت صوبه صارخاً.. أكان سيلقى بالبندقية جانباً ويثب  
نحوى سعيداً؟ أم أنه على العكس كان سيعجل بالضغط بإصبع قدمه على الزناد وهو يحدجنى  
بعينين ميبتين تنطقان بالكراهية؟

إلى الآن مازالت روحى تعلق صوب بيته فى تلك الليلة، تحوم باذلة أقصى قدرة مثلثة  
على التوحد بروحه، ماضية وراء كل حركة يقوم بها، معتصرة كل جهدها لتخمن ما يدور  
برأسه.. ولكن بلا جدوى، فتتوب إلى من جديد لقد بلغ داره الريفية فى وقت متأخر من المساء،  
فماذا فعل فى الساعات الأخيرة من عمره؟ لعله . قبل كل شىء . قد بدل ملابسه، وعلق بذلته فى  
الصوان، علقها لا كيفما اتفق، بل على نحو مرتب كما اعتاد.. ثم خرج بعد ذلك ليأتى بحطب  
لتسخين المدفأة.. وتناول تفاحة ليأكلها. لكن هل استولى عليه ذلك القرار المهلك فى الحال؟ لا  
أظن. فكيف لمن اتخذ قراراً بالانتحار أن يهتم بتسخين المدفأة وأكل تفاحة؟ كلا.. إنه يتراجع عن  
تسخين المدفأة بغتة، ويستلقى راقداً، وفى تلك اللحظة على الأرجح يتخذ قراره.

ترى ما هى الصور التى تراءت له؟ هل استغرقتة ذكرياته فى الدقائق الأخيرة؟ أم أنه لم  
يستسلم لها وشرع يعد نفسه فحسب لما قرر الإقدام عليه؟ هل بكى؟ أم نهض واقفاً، واستحم،  
ارتدى ملابس داخلية نظيفة، وكانت البندقية معلقة على الجدار، رفعها من مكانها، وأحس وهو  
يحملها بثقلها البارد وجمود الماسورتين الفولاذيتين، ورقد بيت الطلقات بطواعية فى راحة يده  
اليسرى، وتحت ضغط إبهام يده اليمنى تحرك لسان الترياس ببطء نحو اليمين، وانقصمت  
البندقية إلى نصفين، وعند موضع القصب كشفت عن فتحتى الماسورتين.. وانزلت رصاصة  
واحدة فى إحدى الماسورتين، انزلت بنعومة ويسر. الرصاص الذى أعطيته له. أضاء النور فى  
أرجاء الدار كلها، وأضاء نور الشرفة، جلس على مقعد وخلق خفه من قدمه اليمنى، ثم فك أمان  
الزناد، فكه بطاقة رنت فى الصمت المطبق، وأولج طرف البندقية فى فمه، ضغط عليها بأسنانه  
فأحس ملمس الماسورتين وطعمهما المعدنى، البارد، الزلق..

ترى هل خلق فى الحال خفه بعد أن جلس على المقعد؟ أم أنه ظل واقفاً طيلة الليل لاصقاً  
جبينه بالزجاج الغائم من الدمع والشهيق؟ أم أنه قام بجولة أخيرة فى قطعة الأرض الصغيرة  
الملتقة حول الدار، مودعاً الأشجار، ونهر "ياسنوشكا"، والسماء، ومقعده الخاص فى الحمام  
العزيز المبنى خارج الدار؟ ترى هل سقط إصبع قدمه على الزناد فوراً؟ أم أنه لقله خبرته أخطأ  
الزناد، وظل بعد ذلك لفترة طويلة يلتقط أنفاسه وهو يمسح عرقه البارد.. ثم راح يستجمع قواه  
مرة أخرى متأهباً لمحاولة ثانية؟ هل أغمض عينيه حينما أطلق النار؟ أم أنه تطلع إلى شىء ما  
بعينين مفتوحتين على وسعهما حتى ومضة العقل الأخيرة؟

ليس الضعف، لا، لكنها الصلابة، والقدرة العظيمة على الحياة هى ما يحتاجه المرء ليبتتر  
حياته بترأ بتلك الطريقة. لكن ما الذى دفعه إلى ذلك؟ ماذا؟ أفكر فلا أجد إجابة. هل انطوت

حياته الحافلة بالعمل والحيوية على عذاب لم أكن أعلم به؟ وإن كان، فهل المعذبون من حولنا قلة؟ كلا.. لا يلجأ الإنسان إلى الرصاص لذلك السبب. هل كان محتماً عليه منذ الميلاد ذلك القضاء المميت؟ وهل حقاً أن كل إنسان موسوم بقدر لا نراه، يوجه مجرى حياتنا منذ البداية وإلى النهاية؟

وجاست روى فى ظلمة.

\*\*\*

كان يوماً من أيام الصيف الدافئة كما قلتُ من قبل، وكان لا يزال حياً بيننا، وكان يوماً مشمساً ساطعاً، يوماً مديداً.. مديداً، من أيام الصيف التي نتذكرها بعد انقضاء سنوات فتبدو لنا أياماً بلا نهاية. ودعنى فى ذلك اليوم، ومرة أخرى داعب بأصابعه شعر رأسك، ومست شفتاه. من بين شاربه وذقنه. جبينك، مسته برقة، ودغدغتك قبلته فأغرقت فى ضحك سعيد. وانصرف "ميتيا" قاصداً داره.

وانطلقنا، أنا وأنت، وأخذت معى تفاحة كبيرة للطريق، وبدأنا رحلتنا التي تمتعنا منذ الصباح بتخيل مسراتها المقبلة. وعندما رأى "تشيف" أننا نستعد للحركة، ركض مقترباً منا ثم جرى على الفور أمامنا يسبقنا وكاد أن يوقعك على قدميك، ففرد أذنيه فى الهواء ترتجفان رجفة جناحي فراشة، ثم وثب عالياً إلى الأمام، وتوارى عن أعيننا بعيداً فى الغابة.

ياه.. يا له من طريق امتد أمامنا طويلاً، كيلو متراً بأكمله تقريباً، مضمرأ لنا المتع الحلوة، ورغم أنك مشيت فى هذه السكة من قبل، ووطأتها أكثر من مرة، فتعرفت إلى بعض جوانبها، لكن.. هل أن وقتاً يشبه وقتاً آخر؟ وهل أن ساعة من الزمان تشبه الأخرى؟ ففى سيرنا، غامت الدنيا تارة وتارة أخرى أشمست، مرة تشبعت بالندى، ومرة تلبدت سماؤها كلها بالسحب، وحيناً آخر زارت مدرجة رعداها، فهطل رذاذها، وانعدت خيوط الماء الدقيقة الجارية خرزات تنتظم عقوداً على الفروع الجافة النحيلة لشجر الشربين، وغسل الماء حذاءك الأحمر فالتمع بلطف، وأعتمت أرض الممشى بلون زيتى غامق منطفىء، ودفعة كانت الريح تهب فتدمم أشجار الحور، وتغمغم قمم البتولا والشربين، طوراً كانت صباحاً، وطوراً آخر منتصف نهار، وقتاً برداً، ووقتاً حرأ، لم يكن هناك يوم واحد يماثل الآخر، ولا ساعة، ولا شجيرة.. لا شىء.

فى ذلك اليوم، كانت السماء زرقاء صافية، زرقة هادئة شاحبة، ليست تلك الزرقة النفاذة التي تسيل جداول صوب أعيننا فى أوائل الربيع، أو تلك التي ترجف أرواحنا حين تنفذ من فرجة فى السحب المنخفضة عند أواخر الخريف. وكنت فى ذلك اليوم مرتدياً فنانة ليمونية، وسروالاً أحمر، قدماك فى صندل بنى، يطل منه جورب أصفر. وكانت ركبتاك مخدوشتين، وقد بدت

ذراعاك بيضاوين، وقدماك أيضاً، وكتفاك.. أما عيناك الواسعتان، الرماديتان بزرقة، المحاطتان بالشمس الدقيق، فقد ازدادتنا زرقة واعتماداً لا أدرى لماذا.

تركنا مدخل البيت خلف ظهرينا، وسرنا نحو الباب الخلفى الصغير. سرنا أول الأمر فى الممر الضيق الذى غارت بقع الظلال فى أرضه ملاصقة لقطع الشمس، وكنا نتخطى جذور شجر الشربين، فتتثنى أوراق الجذوع مرنة تحت أقدامنا. وفجأة توقفت فى مكانك كأنما تسمرت ورحت تتطلع إلى ما حولك، وعلى الفور أدركت أنك تبحث عن العصا.. العصا التى لم تكن تتصور بدونها أية نزهة. وبحث فى الممر حتى وجدت لك عوداً من شجرة جوز فقصمته، وناولتك نصفه: العصا. وغضضت بصرك فرحاً لأننى خمنت أمنيتك، وأخذت العصا منى ومددت الخطو أمامى وأنت تلامس بطرفها جذوع الأشجار الداخلة إلى أرض الممر، وأوراق السرخس الطالعة ملنفة كآلة الكمان ورطبة من الظلال.

أحنيت رأسى أتابعك ببصرى، وكنت ألمح قدميك الصغيرتين وهما تتبادلان الخطو إلى الأمام، وكنت أرى رقبتك النحيلة وخصلات شعرك الفضى التى كست رقبتك من الخلف، وذؤابة شعرك المنفوشة، وحاولت أن أستعيد صورتى وأنا صغير، فتألمت على الذكريات على الفور.. لكن.. مهما تكن صورى المستعادة من أبعد فترات الطفولة، كنتُ كيفما تذكرت نفسى أرانى أكبر منك وأنت تمشى الآن إلى جوارى.

مشينا حتى انفسح أمام بصرنا فجأة خلاء واسع عن يسارنا، كاشفاً تحته عن واد صغير، تفرق فيه نهر "ياسنوشكا"، وانبعثت من المروج الساخنة رائحةً دافئةً مستقيضةً فى روح الغابة التى طوقتنا من كل ناحية..

رددتُ بصورة تلقائية مطلع أغنية للأطفال:

. "اليوشا.. رجليه بدرى.."

واستجبت ببساطة فى الحال:

. "ماشيه على السكة تجرى".

وأدركتُ وأنا أرى ارتعاشة أذنيك الشفافيتين أنك ابتسمت.

لقد سعيثُ أنا أيضاً، فى وقت مضى، مثلك الآن هكذا، فى بحبوحة من الزمن، وكان صيف حينذاك، وكانت الشمس حامية، والنسيم يدفع أمامه شذى كرائحة هذه المروج.. كان ذلك بإحدى المناطق فى ضواحي موسكو. وكنتُ أقف فى حقل واسع انقسم الناس فيه إلى قسمين، فوقفت جماعة منهم عند طرف حقل، حيث امتدت خلفه فى العمق غابة ليست كثيفة من أشجار البتولا، وتألقت تلك الجماعة من النسوة والأطفال وحدهم، وكانت غالبية النساء يبكين وهن يجفن

دموعهن بمناديل الرأس الحمراء. وفي الطرف المواجه لنا من الحقل وقف فريق من الرجال صفاً واحداً لاح خلفهم مرتفع لمزلقان سكة حديدية، وبدت فوق المزلقان عربات شحن بنية داكنة من قطار انطلقت صفارته وتساعد أمامه دخانه الأسود عالياً بعيداً.. وكانت حفنة من الرجال بالقمصان العسكرية يروحون ويجيئون بيننا وبين صف الواقفين..

كانت أمى تبكى مع النساء، وتجفف دمعها الجارى، وكانت تزر . طوال الوقت . عينيها ضعيفتى البصر وتسالنى: "يا ابنى.. هل ترى أباك؟ هل لمحته؟ قل لى أين يقف. على الأفل أشر لى فى أية ناحية هو..". قلت لها: "نعم.. أنى أراه يا أمى"، وبالفعل كنت قد شاهدته هناك بين الرجال فى الجانب الأيمن من الصف، ورآنا هو الآخر فابتسم، وكان يلوح لنا بيده من وقت لآخر، لكنى لم أدرك ما الذى يمنعه من التقدم للفائنا، أو يمنعا نحن من المضى إليه.

وشعرتُ بغتة بتيار من القلق يسرى بيننا، وأمسكتُ بضعة من الأولاد والبنات بربطات صغيرة، وشرعوا وهم مترددون، يعدون عبر المروج الواسعة إلى الطرف الآخر من الحقل. وبتعجل دفعت أمى إلى بربطة ثقيلة من الملابس والمعلبات، ولكزتى، وصوتها المرتفع يلاحقنى: "أسرع إلى أبيك يا ابنى واعطه الربطة، قبله وقل له أننا ننتظر عودته". وكانت الوقفة الطويلة فى الحر قد أرهقتنى، فسعدت بتلك المهمة وجريتُ مع الأولاد الآخرين..

وتلألأت ركب الأطفال العارية بضوء الشمس المتقطع وأنا أعدو بينهم فى الحقل، وكانت البهجة تخز قلبى لأن أبى . أخيراً . سيضمنى إلى صدره، ويرفعنى بذراعيه ليقلبنى، ولأننى سأستمع من جديد إلى صوته، وأنشق رائحة دخانه الهادئة. لم أكن قد رأيت أبى منذ زمن بعيد، حتى أن ذكرياتى القليلة عنه كانت كأنما اكتست بغلالة من الرماد الرقيق، وأصبحت إحساساً بالشفقة على نفسى، لأننى وحيد من دون كفيه الغليظتين، الخشنتين، وحيد من دون صوته، ونظراته التى كان يلقيها على نفسه فى المرأة. كنت أعدو وأنا أتخطف النظر تارة إلى الأرض التى تجرى من بين قدمي، وتارة إلى وجه أبى الذى ميزتُ فيه شامة صدغه.. واتضح لى وجه أبى وقد حطت عليه التعاسة فجأة، ولاحظت أنه كلما قلت المسافة بينى وبين الصف، زاد قلق الرجال الواقفين هناك ومن بينهم أبى..

انتهى الممر الضيق، وخرجنا من الباب الخشبى الصغير إلى الغابة الواسعة، واستدرنا يمينا صوب البناء الدائرى ذى القبة الخرسانية، وكان جارنا قد شرع بينيه فى وقت ما لكنه لم يتمه، فانسحب اللون الرمادى على البناء بأكمله، بقبته، وأعمدته، وطوقته أشجار الحور والشربين متشابكة ملتفة، وكنتُ لمدة طويلة تستمتع بتقليب النظر فيها، بانبهار..

عن يسارنا، تفرقت مياه نهر "ياسنوشكا" خيوطاً فوق الحصى، ولم نكن قد رأينا النهر بعد، فقد وارته عنا شجيرات الجوز الكثيفة وأحراش التوت، لكننا كنا نعلم أن هذا الممشى الذى يقودنا إلى البناء ذى القبة سيمضى بنا إلى نقرة صغيرة معتمة من مياه النهر، تدور فيها وريقات الشجر، ببطء شديد.



من الفرجات فى أعلى الشجر، صبت الشمس علينا أشعتها، مقطعة، فى أعمدة رأسية تقريباً.. وتوهجت من ضوء الشمس خيوط عصائر الأشجار متموجة كالعسل على ألحية الشجر، وتناثرت هنا وهناك، حبات فراولة حمراء كقطرات من الدم.. وتزاحمت ترف من حولنا هويشات الباعوض الخفيف، وتنادت طيور حجبها كثافة الأوراق فى الأشجار، ولاح واختفى فى شعاع شمس سنجاب فر من شجرة لأخرى، وتأرجح الفرع الذى تركه السنجاب من لحظة مهتزاً، وطابت روح سلامية فى كل شىء حولنا.

. أليوشا.. انظر: سنجاب. أترأه؟ إنه يتطلع إليك.

ورفعت بصرك لتتظر السنجاب، وأخذت تحديق إليه، وأقلت عصاتك من يدك، وكنت دوماً تتركها تسقط من يدك إذا استرعى انتباهك شىء ما. ظللت تتبّع السنجاب بصرك حتى احتجب تماماً، وحينئذ تذكرت عصاتك فالتقطتها وانطلقت فى السكة من جديد.

من أمامنا، طلع علينا "تشيف" بوثة عالية فى الهواء كأنه سيرتفع طائراً، وتوقف ورنا إلينا مدة بعينيه العميقتين المسحوبتين كعيني الغزال مستقهماً: هل يواصل ركضه إلى الأمام؟ أم أننا سنرجع فى الاتجاه العكسى، أو نحيد عن الطريق؟ وأشرت له دون أن أنبس بحرف إلى الاتجاه الذى ستمشى فيه، فاستشف الإشارة واندفع راكضاً فى الطريق. وبعد دقيقة تناهى إلينا نباحه المتهيج يتردد من مكان ثابت لا يتحرك من عنده. إذن فلم يكن "تشيف" يطارده صيداً، لكنه عثر على شىء ما، ولهذا يدعونا لنوافيه بسرعة.

قلت لك: أسمعت؟ عزيزنا "تشيف" وجد شيئاً وينادينا.

ورفعتك لأحملك على ذراعى، حتى أجنيك أشواك الشربين ولكى نصل أسرع إلى "تشيف". ورحنا ندنو من مكان النباح أقرب فأقرب حتى انتهينا إلى شجرة بتولا ضخمة بديعة، كانت تنهض منعزلة فى مرج صغير غشته طحالب صفراء، وحادة الخضرة، وليكية، وأسفل الشجرة شاهدنا "تشيف" وهو يحاوط قنفذاً ولم يكن ينبح فحسب، بل كان يهر بصوت مكتوم وحاد وهو يغص بتأوهات. وأدهشتنى مرة أخرى حاسة "تشيف"، فأنى له وهو يركض فى الممشى أن يحس من على بعد ثلاثين متراً عن الممشى بوجود قنفذ تحت تلك الشجرة؟

اشتد نباح "تشيف" حين رأى أننا وصلنا إليه، ورأيت الطحالب المحدقة بالقنفذ وقد داستها أقدام "تشيف" من كل ناحية. أنزلتلك إلى الأرض، وشرعت أشد "تشيف" من الطوق المحيط برقبته لأبعده عن القنفذ.. وجلسنا القرفصاء أمام القنفذ المحاصر.

قلت لك: هذا هو القنفذ. كرر: ..قن.. فذ.

ورددت: قنفذ. ثم لامسته بطرف عصاتك.

وانتفش القنفذ وقفز من مكانه، فسحبت عصاتك بسرعة وفقدت توازنك واقعاً على الطحالب.

قلت لك: لا تخف. ولكن لا داعي لأن تلمسه. انظر.. كيف تقلص القنفذ مثل الكرة ونشر شوكة، لكنه حالما تغادر المكان سيخرج بوزه ويجرى على أشغاله، فهو مثلك يتنزّه، بل إن النزّهة ضرورية، لأنه ينام الشتاء بأكمله.. الثلوج تسوقه إلى النعاس فينام. هل تذكر الشتاء الماضي؟ أتذكر كيف كنت تجلس في زلافتك الخشبية ونحن نجرها بك على الثلوج؟

لم تجبني على سؤالى، لكنك ابتسمت فحسب، بسمتك الغامضة. يا إلهى.. ما الذى كان بوسعى ألا أعطيه، لكى أدرك فقط، سر بسمتك المبهمة تلك؟ حين تبتسمها وأنت وحدك.. أو عندما تسمعنى بينما أخاطبك؟ أترك تعى شيئاً أهم وأعمق من كل ما عرفته وخبرته أنا فى الدنيا؟

وتذكرتُ يوم ذهبتُ لأتلقاك من مستشفى الولادة، وكنت حينذاك ربطة متماسكة وملفوفة بإحكام، مجرد لفة تناولتها من الممرضة وخيل لى أنها ثقيلة إلى حد ما. ولم أكن قد بلغت باب السيارة بعد، حين شعرت أن داخل تلك اللفة جسماً دافئاً وحيماً، أحسست ذلك رغم أن وجهك كان مستوراً بقماشة رقيقة ولم أكن قد شعرت بأنفاسك بعد. فى البيت حرنناك من القماط فور وصولنا، وتوقعتُ مما يكتب ويشاع عن المواليد أن أرى وجهاً صغيراً أحمر اللون، لا يبين فيه ملمح من التجاعيد، لكنى لم أبصر لا حمرة ولا تجاعيد. كان وجهك صافياً ومضيئاً، وتحركتُ متدافعة قدماك ويداك الدقيقة بشكل مذهل، وفتحت عينيك الواسعتين، فبان لونهما السماوى الضارب إلى الرمادى، فتحتهما وتطلعت إلينا بأهمية. كنت آية واضحة بأكملك، لولا الشريط الطبى الملصق بسرترك.

سرعان ما قمطوك من جديد، وأطعموك، وأرقدوك لتنام. وانتقلنا جميعاً إلى المطبخ فجلسنا هناك، وانهمكت النساء وهن يشربن الشاى فى ثرثرة بهيجة بشأن القماش الذى يفرش تحت الطفل، وأفضل الطرق لتعقيم لبن الرضاعة، وإعداد الحمام، وغير ذلك. ولم تقر لى جلسة، فكنت أنهض من وقت لآخر وأتوجه إلى غرفتك، أجلس بجوار سريرك وأتملى وجهك طويلاً. فى المرة الثالثة أو الرابعة عندما قصدتُ غرفتك وجلستُ قريبك، رأيتك فجأة تبتسم أثناء نومك ووجهك يختلج..

ما معنى بسمتك تلك؟ أهى من أحلام طافت بعينيك؟ لكن آية أحلام كان لك أن تراها؟ وأى شىء كان لك أن تعرفه؟ وكيف للأحلام أن تراودك؟ إلى أين ساقتك أفكارك حينذاك؟ أو كانت لك أفكار؟ لم تكن بسمتك فقط، إنما ضاء وجهك كاملاً بتعبير رفيع عن أرقى درجة من المعرفة، وشفقتُ فوقه سحبات رقيقة وهو يصير كل لحظة إلى وجه آخر، غير ما كانه، ومع ذلك لم ينطفئ ولم يتحول انسجامه العام لحظة.

فى أوقات صحوك، سواء أكنت تبكى أم تضحك، أم تتطلع صامتاً إلى اللعب المعلقة إلى حافة سريرك، لم يكن وجهك فى تلك الأثناء يستتير بذلك التعبير الذى استفاض فيه وأنت نائم فأذهلنى وجعلنى أمسك أنفاسى مفكراً: ما الذى يحدث لك؟

فىما بعد، قالت لى أمى: "يبتسم الوليد هكذا، لأن الملائكة تلاطفه".  
والآن، ونحن جالسان القرفصاء نتأمل القنفذ، أجبتى عن سؤالى ببسمة المبهمة، لم تقل شيئاً، وهكذا لم أعرف إن كنت تذكر ذلك الشتاء أم أنك لا تذكره؟ وكان شتاؤك الأول الذى انصرم فى "أبرامتسيفا" شتاءاً جميلاً، تساقطت ثلوجه وفيرة أثناء الليل، وأضاعت شمسها فى النهار بلون وردى مشع، حتى صارت سماؤه وردية، واكتست أشجار البتولا وبرة من قطرات الندى، تجمدت نقطاً ثلجية. وكنا نخرج بك لتستشق هواء الثلوج النقى، فتنتعل حذاءك الشتوى، وترتدى معطفاً من الفرو سميكاً إلى درجة أن يدىك فى قفازيك السميكين كانتا تتباعدان عن جانبيك فى الهواء. وكان لا بد، إذا جلست فى الزلافة، من أن تأخذ معك عصا تمسكها فى يدك طوال الفسحة، ولذلك أسندنا إلى مدخل البيت عدة عصى مختلفة الطول، وكنت فى كل مرة نخرجك للفسحة تختار عصا أخرى غير السابقة. كنا نخرج بك من بوابة البيت ومن هناك تبدأ فسحتك المبهجة وتشرع بعصاتك فى رسم الخطوط فوق الثلج، وتناغى نفسك، وتناغى السماء والطيور والشجر، وتناغى حتى هسهسة الثلج المتكسر تحت حديد زلافتك وتحت أقدامنا. وكان كل ما حولك ينصت إليك، ويفهم غمغماتك، وحدنا نحن لم نكن نفهم ما تقوله، لأنك لم تكن قد تعلمت الكلام بعد، وإن كنت تترنم بمختلف الألحان، وكانت كل لا.. لا.. لاتك، وبا.. با.. تك، وفا.. فا.. فاتك تسر إلينا شيئاً واحداً: أنك سعيد. ثم لزممت الصمت، فطلعنا حولنا ورأينا عصاتك واقعة خلفك، هناك بعيداً، فبدت سوداء فوق الثلوج البيضاء، وأنت تغط فى النوم وقد باعدت ما بين ذراعيك بينما اشتعل خدك المشدودان حمرة من البرد. وكنا نجر الزلافة وأنت نائم ساعة وساعتين فلا تصحو أو تفيق، وحتى بعد أن نصل إلى البيت، كنت تواصل إغفائك العميق بينما نخلع عنك حذاءك، وملابسك، نفاك أزرار ألبستك، ونحررك من الأربطة، ونرقدك فى سريرك وأنت لا تزال نائماً.

حينما أشبعت بصرك من القنفذ، نهضنا وعدنا إلى السير فى المشى من جديد، وسرعان ما بلغنا البناء ذا القبة، وحالما شاهدت القبة توقفت مكانك ولفظت بسرور كعادتك:

. قبة.. حو.. وة.. كب.. يو.. لة.

تطلعت مدة إلى القبة "الحلوة الكبيرة" من على مسافة، ورددت بنفس النبرة المندهشة "قبة.. كب.. يو.. لة" وكأنها المرة الأولى التى تراها. اقتربنا منها، فرحت تطرق أعمدتها واحداً بعد الآخر بعصاتك، ثم غضضت الطرف ناظراً إلى حوض النقرة الصغيرة تحتنا، وفى الحال مددت لك يدى، وشرعنا ويدى بيدك ننحدر إلى أسفل الجرف، وحين وصلنا إلى الماء بدا سطح النقرة الصغيرة ثابتاً لا يضطرب، وعلى مرمى البصر ضحل النهر وتناهى إلينا من هناك خريف الماء فى الحصى، ولم يكن جريان الماء مرئياً إلا إذا راقبنا لبرهة ورقة شجر وهى تسبح وتتحرك ببطء إلى الأمام حيث ضحل النهر، ببطء حركة عقرب الدقائق فى الساعة.

بجانِب الماء رقدت شجرة شريين مكسورة، جليستُ عليها وأخذتُ أدخن. كنتُ أعرف أنى سأملكُ هنا إلى أن تمتلىء أنت غبطة وحبوراً من كافة متع النقرة الصغيرة. أقلتُ العصا من يدك واقتربتُ من أفضل موقع يناسبك فى الشجرة، ذلك الممتد داخل الماء مباشرة، وانحنيتُ راقداً عليه بمقدمة صدرك، وصرتُ تحديق فى الماء. من الغريب أنك فى الصيف لم تكن تميل إلى اللهو باللعب المألوفة، لكنك همت بتفحص الأشياء بالغة الدقة، وكان بوسعك أن تظل . إلى ما لا نهاية . منشغلاً بزحزحة حبة رمل صغيرة فوق راحتك، أو ورقة شريين ضئيلة أو فتيتة من عشب، وكانت كسرة من طلاء الجدار بالبيت لا تزيد عن مليمتراً تكشطها بأظفرك جديرة بأن تسلمك لمتعة التأمل طويلاً. وكان عالم النحل والفرش والباعوض يشغلك أكثر بكثير من عالم القبط والكلاب والأبقار والغريبان والسناجب والطيور. أى كون، لا نهاية له، تفتح لك فى قاع النقرة الصغيرة وأنت راقد على الشجرة يكاد وجهك يلامس الماء متملياً كل ما فى القاع؟ وكم من حبات رمل دقيقة وصغيرة استكنت هناك، وكم من حصى تباينت ظلال لونه، وأى زغب أخضر رقيق كسا الحصى الكبير، وكم من الأسماك خليقة لتوها، دقيقة، شفافة الجسم، كانت تسكن مكانها تماماً بلا حراك، وتارة أخرى تثب فجأة فى الهواء ناثرة الماء معها، وكم من دقائق لا ترى إلا بالميكروسكوب كانت مرئية لعينيك وحدهما؟

بعد دقيقة قلت لى:

. الأسماك.. تسبح.

قلتُ لك وأنا أقترب لأجلس بجوارك:

. آها.. إذن لم ترحل الأسماك بعد إلى النهر الكبير؟ يا لها من أسماك صغيرة لعلها مخلوقة لتوها، فهى ضئيلة للغاية..

ووافقتنى بسرور:

. صد.. غي.. لة.. جداً.

كان الماء فى النقرة الصغيرة شفافاً، إلى درجة أنه لم يكن ليُرى لولا صورة السماء المنعكسة عليه مع أعالي الشجر. دليتُ رأسك مقترباً من الماء وكمشتُ حفنة من حصى القاع، فارتفعت قليلاً من النقرة سحابة من عكارة دقيقة، وظلت معلقة هنيهة مكانها ثم هبطت، وحينذاك فككت قبضتك عن الحصى الذى كمشته فاهتزت صورة الشجرة على سطح الماء. وحين اعتدلت رافعاً نصفك العلوى من على الشجرة، ونهضت بسرعة، أدركتُ أنك تذكرت لعبتك المفضلة التى أن أوانها: رشق الماء بالأحجار.. ومرة أخرى، رجعتُ إلى جلستى الأولى، وتخيرتُ أنت حجراً كبيراً، وقلبتُه فى راحتك، تتأمله بحب من مختلف جوانبه واقتربت من الماء ثم قذفت الحجر إلى وسط الدوامة، واندفعت نافورة الماء إلى أعلى بخيوط الهواء المتموج، واصطك الحجر مكتوم الصوت

بقاع الحفرة، وانداحت الدوائر فى الماء.. ووقفت مستمتعاً بصورة الماء المضطرب، وبانتثاره، وبصوت الحجر المكتوم، وبقبقة الماء، إلى أن هدأ كل شيء، فتناولت حجراً آخر، كما فعلت من قبل، تأملته، ثم ألقيت به..

رحت ترمى حجراً إثر حجر، وقد أبهجتك رؤية الرذاذ المتطاير واندياح الدوائر، وكانت الدنيا ساكنة من حولنا ونضرة، لم تصل إلى أسماعنا ضوضاء القطارات، لم تحلق فوقنا طائرة، لم يعبر قرينا أحد، ولم يرنا إنسان. فقط "تشف" كان يبرز من وقت لآخر، من هذه الناحية أو تلك وقد تدلى لسانه، ولكنه عند طرشة الماء كان يجرى بعيداً إلى النهر، فيلعق المياه منه بصوت مسموع، ومن هناك يتطلع إلينا مستفهماً، ثم يعدو مختفياً فى الغابة..

استقرت باعوضة على كتفك، لكنك لم تنتبه إليها مدة طويلة، وأخيراً هششتها بيدك وأنت تقطب وجهك مقترباً منى، وقلت لى:

. الباعوضة.. قلصتتى..

حككت لك كتفك، ونفخت فيها، وربت عليها، وقلت لك:

. والآن.. ماذا تتوى؟ هل ستواصل رمى الأحجار؟ أم نمضى إلى الأمام؟

وقلت مقررأ: نمشى إلى الأمام. حينذاك حملتك على ذراعىّ وخضت بك نهر "ياسنوشكا". كان علينا أن نعبر الوادى الضيق المشبع بالندى، الذى بدت فيه تيجان البقول البيضاء المتكاثفة كأنها رغوّة كست الوادى منصهرة تحت حرارة الشمس متموجة فى خطوط غمرها النحل بطنين سعيد.. ارتفع الممر إلى أعلى بين شجر الشربين والجوز، وعلا وسط أشجار البتولا والبلوط، إلى أن انتهى عند مرج واسع تحده من اليمين غابة، ومن اليسار حقل متموج. طلعتنا المرج إلى فوق حتى بلغنا ذروته، فبان الأفق البعيد، ولاح فوق مدينة "زاجورسك". التى لا نراها. ضباب رقيق، تبينا منه بصعوبة أعمدة الاستقبال التلفزيونية. كان واضحاً أن الحصاد قد بدأ فى المرج، إذ كان الدريس ملقى أكواماً فوق الأرض والنسيم يهب مفعماً برائحته الضعيفة.

جلسنا فى موضع لم تُحصد أعشابه وزهوره بعد، فطالنت كتفىّ وأنا جالس على الأرض، ومشيت أنت تخوض برأسك بين الأعشاب والزهور، لا يظلك شيء سوى السماء، وتذكرتُ التفاحة، فأخرجتها من جيبى ودعكتها فى العشب حتى لمعت، أعطيتها لك، فتناولتها بيديك الاثنتين، وقضمتها على الفور، وبدا أثر القضمة فى التفاحة كأثر قدم السنجاب.

من حولنا امتدت أرض "رادنيجسكى، واحدة من أعرق الأراضى الروسية، إحدى المدن الهادئة التى دخلت فى نطاق مدينة موسكو. وعند طرف الحقل حلقتُ عالياً حدأتان. حلقتا ببطء وانسياب فى مدار متكرر. لم يبق لنا شيء من ذلك الماضى، تبدل كل شيء، الأشجار والغابات، بل والأرض نفسها، واندثرت المدينة القديمة "رودينيچ" وكأنها لم تكن، لم يبق منها

سوى الذكريات، هي كل ما تبقى لنا، وهاتان الحدأتان اللتان تحلقان فى الدوائر، كأنما منذ ألف عام.. ولعل نهر "ياسنوشكا" مازال يتدفق فى نفس المجرى القديم..

فرغت من أكل التفاحة، لكن كان واضحاً أنك سارح فى عالم آخر.. أدركت ذلك. كما لاحظت أنك لمحت الحدأتين وأتبعتهما بصرك طويلاً. طارت بعض الفراشات فوقك، البعض منها شده لون سروالك الأحمر فحاولت الوقوف عليه، ولكنها كانت تحلق مرتفعة فى الحال، وبصرك لا يفارق طيرانها البهيج.

تكلمت معى باقتضاب، وكان بادياً على عينيك ووجهك أنك تفكر طوال الوقت فى شىء ما. يا إلهى، كم تمنيت أن أكون أنت ولو لدقيقة واحدة، لأعرف فيم تفكر.. لقد تغيرت وأصبحت إنساناً!

كان عالمنا مباركاً سعيداً، لم تتفجر فيه قنبلة، لم تحترق مدنه وأشجاره، لم يتجمد فيه الأطفال من البرد القارس، ولم يدوم فيه ذباب الموتى فوق جثثهم الملقاة على الطريق، ولم يسيروا فى ثياب بالية تشغى بالقمل، ولم يعيشوا فى الخرابات وكأنهم وحوش. الآن أيضاً انهمرت دموع الطفولة وسالت، لكن لسبب آخر تماماً.. تماماً. أليس ذلك من الغبطة؟ أم ماذا؟ أليس من السعادة؟ أم لماذا؟.

التفتُ حولى مرة ثانية وأنا أفكر: لعل أحداً غيرنا لم يشاهد هذا اليوم، وهذه السحب التى تتمهل فوقنا فى هذه اللحظة، والنهر الجارى تحتنا فى وسط الغابة، والحصى الذى ألقته يداك ومازال راقداً فى القاع وخبوط الماء الصافى تلتف من حوله، وهذا الهواء الحلقى والممشى الأبيض الذى وطأناه فى الحقل بين جدارين من الشوفان الذى بدا كأنما قد جرت عليه خيوط زرقاء وفضية من الجليد، لعل أحداً غيرنا لم يشاهد القرية الصغيرة الواقعة بعيداً والأفق يرتجف من خلفها. سيبطل هذا اليوم فى وجدانى إلى الأبد، مثل أيام أخرى مضيئة فى حياتى، لكن هل ستتذكر أنت هذا اليوم؟ فنتجه ببصرك. يوماً ما فيما بعد. محققاً بعمق إلى ذلك الماضى البعيد؟ فتحس أن السنوات التى انصرمت لم تنصرم، وترتد من جديد طفلاً صغيراً تجرى بين زهور تظال كتفك فتطير الفراشات فزعة منك؟ أمن المعقول، أمن المعقول أنك لن تتذكر نفسك، ولن تتذكرنى؟ أحفاً أنك لن تتذكر هذه الشمس الحارة التى تلفح كتفك؟ وسوف تنسى تماماً مذاق هذا اليوم الصيفى الطويل وصوته الذى لا يشبه الحقيقة فى شىء؟ أين ينظمر كل هذا؟ وبأى قانون غريب ينقطع ويتوارى فى عتمة العدم؟ أين تنطوى أسعد الفترات الباهرة عند بداية الحياة؟ وأرق لحظات الطفولة؟

ضربتُ كفاً بكف من يأسى، لأن الزمن الذى يولد فيه الإنسان، أعظم الأزمنة، يستتر ويضيع منا فى الظلمة. وها أنت قد عرفت الكثير، واكتسبت ملامحك الشخصية الخاصة بك، وصارت لك عاداتك، وتعلمت الكلام، وأصبحت تفهم اللغة أفضل مما تتكلمها، وأضحى لديك ما "تحبه"، وما "لا تحبه". وأسأل أى إنسان، سيقول لك الجميع إنهم يتذكرون أنفسهم من عند السنة الخامسة أو السادسة من أعمارهم، وماذا عما قبل ذلك؟ أم ترانا لا ننسى شيئاً؟ فيتردد علينا ريق الأيام الأولى

والطفولة الباكرة ومضاً خاطفاً؟ ألم يحدث لكل منا تقريباً أن يرى شيئاً مألوفاً وعادياً كبركة مياه في الطرقات الخريفية، أو يستمع إلى صوت من الأصوات، أو يشم رائحة ما فيرتجف مذهولاً من خاطر مكهرب: لقد شاهدت ذلك من قبل، لقد وقع فيما مضى، لقد عشت ذلك، أين؟ ومتى؟ هل جرى ذلك في حياتي هذه؟ أم في حياة أخرى؟ وبضني كل منا نفسه لكي يتذكر، ولكي يستعيد ومضة مما مضى، بلا جدوى..

حان ميعاد نومة الظهر، رجعنا إلى البيت وكان "تشيف" قد سبقنا إلى هناك، ودعس لنفسه موضعاً في العشب المتكاثف بجوار البيت ومط جسده غافياً ويده ترتجف من وقت لآخر. عم الهدوء أركان البيت، وفاض ضوء الشمس من النوافذ على الأرض قطعاً مربعة منيرة. وفي غرفتك، بينما رحنُ أخلع عنك ثيابك وألبسك "البي" اما، كنت قد تذكرت كل ما رأيته في الصباح وسردته على. في ختام كلامنا، تتأببت بقوة مرتين. أرقدتك في فراشك وقصدتُ غرفتي، ولعلك رحنُ في النعاس من قبل خروجي من عندك.

جلستُ عند نافذة مفتوحة، وأخذتُ أدخن وأنا أفكر فيك. وتصورت سنواتك المقبلة، ومن الغريب أنني لم أود أن أراك كبيراً تطلق ذقنك وتدخن السجائر وتغازل البنات، ولكني تمنيت لو أراك أطول زمن ممكن. لا صغيراً كما كنت حينذاك في ذلك الصيف. لكن وأنت في العاشرة من عمرك تقريباً. أي تجوال وتطواف كنا سنقوم به معاً.. وحينها ما الذي كنا لن نهتم به؟

رجعتُ إلى الحاضر، ومرة أخرى فكرتُ وإجمالاً في أنك أكثر حكمة مني، وأنت تدرك أمراً ما أمراً أدركته أنا أيضاً في زمن ما، لكني الآن لا أذكره.. فقد نسيتَه. وفكرتُ في أن هذا الكون الشاسع بكل ما به، مخلوق لكي نرنو إليه بعيني الطفولة، وأن: "هذه المملكة الإلهية ملكك أنت". ليست جديدة هذه الكلمات، فلقد قيلت منذ زمن بعيد، وإذن فقد أحسوا منذ ألف عام مضت بالتفوق المبهم للأطفال علينا.. فما الذي أعلاهم علينا؟ أهى البراءة؟ أم شيء آخر؟ أهى معرفة رهيبة من نوع خاص؟ معرفة تتلاشى مع تقدم العمر؟

انقضت أكثر من ساعة وأنا جالس أفكر. تزحزحت الشمس من مكانها بصورة ملحوظة، واستطالت الظلال في الأرض حين شرعت تبكي.

فركتُ السيارة في المطفأة وقصدتُ غرفتك معتقداً أنك بحاجة لشيء ما. كنت نائماً تبكي وركبتك مضمومتين إلى صدرك ودموعك التي همتُ بغزارة قد غمرت وسادتك. كان بكائك في الحلم مريراً. استيقظت. كنت تنشج يائساً من دون أمل. لم تكن تبكي بهذه الصورة وأنت مستيقظ، وكنت ببساطة. إذا أصابتك رضوض أو ركبت رأسك نزوة. تجهش بصوت مرتفع. لكنك الآن كنت تبكي كأنما تنعى أمراً ما يودعك مفارقاً للأبد. وكانت أنفاسك مختنقة من النحيب، صوتك أيضاً كان مختلفاً.

ليست الأحلام إلا انعكاساً مشوشاً للواقع، ولكن إن كان الأمر على هذا النحو فأى واقع تراءى لك فى أحلامك؟ وما الذى أبصرته سوى نظراتنا المحبة والرقيقة؟ سوى ابتساماتنا، وألعابك الصغيرة، والشمس والقمر والنجوم؟ وما الذى سمعته عدا خرير المياه، وحفيف الأشجار، وزقزقة الطيور، وصوت المطر المهنهن فوق سقف البيت وأغانى المهد؟ ما الذى أمكنك أن تعرفه من هذه الدنيا سوى هناءة الحياة اللينة؟ فلماذا يكون بكاؤك فى الحلم مريراً إلى هذا الحد؟ وأنت لم تعان شيئاً، ولم تتدم على ماض، ولم يكن يلوح لك رعب الموت؟ ما الذى حلمت به؟ أم أن أرواحنا تجزع فى الطفولة خشية الآلام المقبلة؟

أخذتُ أنبهك بحذر لتفريق، وأنا أريت على كنتفك، وأمر بيدي على شعر رأسك. وهزرتُ يدك برفق قائلاً: "اصح يا بنى، يا حبيبي، قم يا أيوشا، قم يا حبيبي". واستيقظت فجلست على الفور فى سريرك وأنت تمد ذراعيك نحوى. ورفعتك وضممتك إلى صدرى بقوة، متعمداً أن أكرر ما أقوله بصوت نشط: "ما بك؟ ماذا جرى لك؟ لقد كان حلماً لا أكثر.. انظر.. أية شمس؟" أرحتُ الستائر جانباً عن النافذة، فامتألت غرفتك بالنور، ولكنك واصلت البكاء وأنت تدفن وجهك فى صدرى وتشد أنفاسك المتقطعة وقد تشبثت أصابعك برفقتى بقوة حتى أمتنى.. قلتُ لك: "الآن سوف نتعدى.. انظر.. آها.. ما هذا الطائر الذى يخلق هناك؟ وأين يا ترى القبط "فاسا" الأبيض المنفوش؟ أيوشا؟ إيه.. أيوشا يا حبيبي.. لا تخف.. لقد انقضى ذلك.. ترى من يمشى هناك؟ أهى ماما؟". قلتُ لك كل ما عن لى من كلمات علنى أشغلك عما بك.

ورأيتك تهدأ بالتدريج، وكان فمك لا يزال مشدوداً منتشجاً مما عانيت، إلا أن ابتسامه بدأت تلوح على وجهك، وأخيراً أشرق محياك، ونور حين سقط بصرك على الإبريق الخزفى الصغير المعلق فى مسمار عند النافذة، وكنت شديد التعلق به، فنطقت برقة مستمتعاً بلفظ الكلمة فحسب: .. بري.. ق.

لم تمط جسمك نحوه، ولم تحاول أن تقبض عليه بيدك، كما يختطف الأطفال عادة ألعابهم المفضلة، واكتفيت بالنظر إليه بعينيك اللتين غسلتهما الدموع، فبدتا نقيتين بصورة خاصة، وبهدوء تمليت الإبريق وطلاءه المزخرف..

غسلتُ لك وجهك، وأحطتُ رقبتك بفوطة ورقية، ثم أجلستك إلى المائدة.. وبدا لى فجأة أن شيئاً ما قد طرأ عليك، إذ أنك لم تدق بقدمك أطراف المنضدة، بل ولم تبتسم، ولم تقل لى كالعادة: "بسرعة عاوز أكل"، لكنك أخذت تحديق صامتاً إلى بنظرة ثابتة وجدية. ودهمنى إحساس بأنك تفارقنى، وأن روحك التى اندغمت فى روحى حتى هذه اللحظة تتأى الآن عنى، وأنها سوف تتأى. أبعد فأبعد. مع كل سنة تتقضى، وأنت الآن لم تعد أنا، ولم تعد استمرارى، كما أن روحى لن تلحق بك بعد الآن، أبداً. إنك ترحل إلى الأبد.

ورأيتُ فى نظرتك العميقة التى لم تعد طفولية روحك التى تهجرنى وهى تتطلع إلى مُعذبة، رأيته تودعنى إلى الأبد. واندفعتُ إليك، محاولاً أن أظل بقربك على الأقل، ولكنى أدركت أننى غير قادر على اللحاق بك، فحياتى تشدنى بقوة إلى طريقى السابق بينما تمضى أنت. من هذه



الحياة . إلى طريقك الخاص. وشملى بأس لا يوصف، وغمرنى ألم لا حدَّ له، ومع ذلك، فقد تردد فى صدرى صوت أمل واهن فى أن روحينا ستتحدان، فى وقت ما مرة أخرى، بحيث لا تتفصلان بعدها أبداً. نعم.. لكن متى وأين سيكون ذلك؟

بصعوبة بالغة أمسكت نفسى عن البكاء يا أخى وابنى الحبيب..  
ولم يكن عمرك فى ذلك الصيف يزيد عن العام ونصف العام

\*\*\*

## أوليا

فى زمن ما.. كانت تعيش فى دنيانا طفلة رائعة، نسيها الآن جميع الناس بل ونسوا اسمها كذلك، فلم يعد أحد يتذكرها أو يتذكر وجهها، باستثناء جدتى التى لم تغب تلك الطفلة الرائعة عن ذاكرتها، فحكى لى عنها، وعمن كانت..

قالت جدتى إنهم أطلقوا على تلك الطفلة اسم أوليا. وكان كل من يرى أوليا الصغيرة يستشعر فى قلبه وخز الضمير حين يستيقظ، لأن أوليا كانت حبيبة الوجه، خيرة الطبع، على حين لم يكن كل من يرمقها شريفاً وطيباً.

كانت ذات عينين واسعتين صافيتين شاهد كل الناس فى عمقهما، وفى أبعد نقطة فيهما. أحب وأهم ما فى الدنيا، ولذلك تمنى كل إنسان أن يحدق فى عيني أوليا ليستجلى فى غورها أقصى ما يبعث السعادة فيه.

غير أن أوليا كانت تطرف بعينيها، ولهذا لا يستطيع أحد أن يستبين ما فى عمق مقلتيها الرائعتين.

وذات مرة، نظر البعض إلى عيني أوليا، وحين شرعوا يلمون بشيء مما يبصرونه طرفت أوليا بعينيها مرة ثانية، فاستحال على الناظرين أن يحيطوا بكل ما فى غورها البعيد.

بيد أن شخصاً ساعفه النظر واستطاع أن يمدّه إلى أقصى مدى فى عيني أوليا، وهناك لمح ما كان. كان اسم ذلك الشخص دميان، عاش على شراء الحبوب رخيصة من الفلاحين فى

سنوات المحصول الوافر ثم بيعها غالية في السنوات العجاف، وبهذا كان على الدوام يحيا في ثراء ورفاهية.

في قاع عيني أوليا رأى دميان صورته، ليس كما كان يبدو للناس وإنما كما كان في دخيلته حقاً: "شذق بشع ونظرة وحشية". لقد ارتسمت على وجهه روحه غير المرئية واضحة في عيني أوليا. وما كاد دميان يرنو إلى صورته حتى ارتحل عن مكان معيشتة ومنذ ذلك الحين انقطعت عن الناس أخباره فترة طويلة، وأخذوا ينسونه شيئاً فشيئاً.

في عيني أوليا كانت تنعكس الحقيقة الخالصة فقط. فلو أن شخصاً قاسى القلب، جميل الوجه فاخر الملبس نظر في مقلتيها لتجلى فيهما بشعاً تتأكله القروح بدلاً من الزينة.

أما أوليا نفسها فلم تكن تدرى أن الحقيقة تنعكس في عينيها. كانت ما تزال صغيرة، لا تدرك.

وبالرغم من أن باقى الناس لم يستطيعوا أن يلمحوا صورهم في عينيها، إلا أنهم جميعاً هاموا بها، وقدروا أن الحياة بخير مادامت أوليا تحيا بهذه الدنيا.

لم يعرف أحدٌ لأوليا أباً ولا أمّاً، فقد عثروا عليها في الصيف تحت شجرة الصنوبر عند البئر وقد مرت على ولادتها عدة أسابيع، ملقاة على الأرض، ملفوفة في شال دافىء، تتطلع نحو السماء في سكون بعينين واسعتين يتبدل لونهما: فمرة تبدو رصاصتين، وأخرى سماويتين، وثالثة سوداوين حالكتين. واحتضن الناس الأختار الطفلة فتبنتها أسرة قروية لم يولد لها طفل، وعمدتها باسم "أوليا".

وقضت أوليا كل طفولتها المبكرة في كوخ والديها بالتبني. وكان يحدث عندما تنام أن عينيها تظلان نصف مغلقتين وكأنها تبصر بهما. وحين كان الفجر يقترب وينشر نوره في الكوخ، كان كل ما يبين في الضوء خارج الشباك ينعكس في عينيها نصف المفتوحتين. كانت تنام على الدكة فيضىء أول النهار وجهها. وكانت الحياة تعيش أولاً خارج الكوخ: فروع الصفصافة النامية خلف الشباك، والسحب المزدهرة بشمس وليدة هادئة، والطيور المحلقة. ثم تعيش ثانية حين تتألق في عمق عيني أوليا. لكن السحب وأوراق الصفصافة والطيور كانت تلوح أجمل وأصفى وأكثر بهجة في عيني أوليا مما تبدو للناس في الطبيعة.

أحب الوالدان أوليا الصغيرة حباً عميقاً، فكانا يستيقظان في الليل من فرط شوقهما إليها ويغادران غرفتهما ويقتربان من أوليا، وفي العتمة يطيلان النظر إلى تلك الطفلة النائمة الغريبة التي صارت أحب إليهما من أى مخلوق في العالم. وكان يلوح لهما أن عيني أوليا تفتقران عن ضياء فيفيض الكوخ الفقير بجو صبيح حينذاك، وكأن الوقت يوم عيد من ماضى من شباب الزوجين.

قالت الأم بصوت هادىء:

. ستموت أوليا عما قريب.

نهرها الأب:

. اسكتى، لا تجلبى المصائب بمثل هذا الحديث. ما الذى يجعلها تموت وهى طفلة؟

قالت الأم ثانية:

. أمثالها لا يعيشون طويلاً.. إن عينيها لا تتغلغان أثناء نومها.

كان الناس فى قريتنا يعتقدون أن الأطفال الذين لا تتغلق عيونهم أثناء النوم يموتون فى سن مبكرة.

أكثر من مرة أرادت الأم أن تسدل بيدها جفنى أوليا وهى نائمة، لكن الأب أمرها ألا تلمسها وهى نائمة حتى لا تفرعها. وكانت أوليا فى النهار تلعب بقصاصات الأقمشة فى ركن الكوخ، أو تسكب الماء بالتناوب من القصعة الفخارية فى كوب معدنى، فى هذا الوقت تحاشى أبوها أن يمسه كأنما خشية أن يؤذى جسمها الصغير.

نما شعر أوليا فاتح اللون يكسو رأسها، وتجدت خصلاته كأن الريح دخلت ما بينها ثم تجمدت، أما وجهها فقد بدا . فى اليقظة أو فى النوم . جزعاً يمعن النظر فى اتجاه ما. لذلك كان الوالدان يحسبان أن أوليا تعانى لتسألها عن شىء يعذبها، لكنها لا تقدر، لأنها لم تكن تستطيع الكلام.

وتوجس أبوها أنها تكابد وجعاً ما فاستدعى لها الممرض لعله يخفف عنها.

أنصت الممرض إلى تنفسها وقال إن كل ما بها سيزول حين تصبح كبيرة.

تساءل الوالد:

. لماذا يحبها الجميع هكذا؟ ليتها كانت أقل جمالاً.

قال الممرض:

. إنها تحفة الطبيعة.

استاء والداها وقالوا:

. أية تحفة؟ إنها كائن حى وليست لعبة.

وحاول إناس آخرون، كما فى السابق، أن ينظروا إلى عيني أوليا لكى يروا هناك من هم.. فى الحقيقة؟ ولعل أحدهم قد رأى نفسه على حقيقتها لكنه لم يبح للآخرين بذلك قائلاً إن الفرصة لم تواته، لأن أوليا طرفت بعينها.

وقد عرف الناس كلهم أن لون عيني أوليا يتبدل، فهى حين تشخص إلى ما هو خير، إلى السماء، إلى فراشة، إلى زهرة أو إلى عابر طريق فقير وعجوز، فإن عينيها تفيضان بضوء صاف، وهى حين تشخص إلى ما ينطوى داخله على الشر تعتم عيناها وتصيران حالكتين. وكانت صورة المرء أو الشيء الذى ترمقه أوليا تنعكس فى عمق عينيها، فى منتصفهما، فى النور الذى يشع هناك جلياً ثابتاً، فى هذا النور كان يبين المظموس سراً فى الأعماق ولا يراه أحد، فينعكس، لا كما يلمحه الناس من الظاهر، لكن ينعكس على حقيقته.

بدأت أوليا تتطرق فى عامها الثانى، وكان كلامها قليلاً، لكنه واضح. وكان عدد الكلمات التى عرفتها محدوداً. شاهدت فى شوارع القرية وحقولها ما شاهده الجميع فألفوه، لكن أوليا كانت تتدهش بصورة دائمة من كل ما تراه، وتصرخ من الرعب وتبكي أحياناً وهى تشير إلى ما نظرت إليه...

سألها أبوها وهو يرفعها إليه دون أن يفهم ما يفزعها:

- ما بكِ يا حبيبتى أوليا؟ ماذا جرى؟ لماذا تحديقين فى هكذا؟ أنا هنا معك.. تلك أبقار تمشى إلى حظيرتها هناك.. لا أكثر.

وتطلعت إلى أبيها برهبة كأنه غريب لم تره أبداً من قبل ثم انزلت مذعورة إلى الأرض وفرت منه.

كذلك كانت أوليا تخاف أمها وتختبئ منها.

كانت تهدأ فى العتمة فحسب. هناك حيث لا ترى عيناها أى شىء.

كانت تستيقظ فى الصبح، وتعتزم أن تهرب على الفور من البيت، فتمشى إلى صومعة الحبوب المعتمة أو إلى الحقل. وهناك فى الوادى الضيق، حيث الكهف الرملى كانت تقبع فى الغبشة إلى أن يعثر عليها والداها. وحين كان أحدهما يحملها على ذراعيه ويضمها إليه ويقبلها فى عينيها كانت تبكى خوفاً وجسمها كله يرتعد، وكأن والديها لم يكونا يدلانها، بل كأن ذئاباً تتناوشها.

وكانت إذا لمحت فراشة هشة ترفرف فوق أعشاب جعلت تصيح وتفر بعيداً عنها، ويستمر قلبها يخفق بالذعر فترة. وكانت جدتى بالذات هى أكثر شخص تهابه أوليا. وجدتى تلك كانت طاعنة فى السن، إلى درجة أن العجائز الأخريات كن ينادينها بـ "جدتنا" وقلما ترددت جدتى على

الكوخ الذى تسكن فيه أوليا، وكانت . إذا توجهت إلى هناك . تحمل معها كل مرة هدية للطفلة:  
قرصاً من الدقيق الأبيض، أو سكرًا، أو قفازاً من صوف تحوكه بالأبر أربعين يوماً كاملة، أو أى  
شئ مما تحتاج إليه طفلة..

قالت جدتى عن نفسها إنه كان من المفروض أن تموت، فقد حان أجلها منذ زمن! والآن لا  
يمكنها أن تموت، ذلك لأنها حين تتذكر أوليا يتنفس قلبها الضعيف من جديد، ويخفق كأنه قلب  
شاب يتنفس من محبته لأوليا، ومن عطفه عليها، وفرحته بها.

لكن أوليا كانت ما أن ترى جدتى حتى تجهش بالبكاء على الفور، ولا ترفع عنها مقاتيتها  
المعتمتين، بل وتأخذها رعشة من الخوف.

قالت جدتى:

. هذه البنت لا تبصر الحقيقة، فهى ترى فى الشر خيراً، وفى الخير شراً.

تساءل أبوها:

. كيف ذلك؟ فى حين يرى الآخرون الحقيقة الخالصة فى عينيها؟

قالت الجدة ثانية:

. هكذا تضىء الحقيقة الكاملة فى عينيها، أما هى نفسها فلا تدرك ..ويبدو لها كل شئ  
معكوساً. كان الأفضل لها لو أنها عمياء، فحياتها أشد مرارة من حياة العمياء.

فكر أبوها حينذاك: "بالفعل، أوليا ترى السيئ حسناً، والطيب قبيحاً، يجوز أن ما قالته الجدة  
صحيح؟".

لم تحب أوليا الزهور ولم تقربها أبداً، لكنها كانت تجمع وسخ الأرض بطرف جلبابها وتذهب  
إلى مكان معتم، وتلعب وحدها، تحرك الوسخ بيديها وقد أغمضت عينيها. كذلك لم تصادق  
أطفال القرية، فكانت تولى عنهم راكضة إلى البيت.

صرخت أوليا:

. إنهم بشعون.. أنا خائفة.

ضمت الأم رأس أوليا إلى صدرها كأنما ابتغت لو أخفتها فى قلبها لتطمئننها. ولم يكن  
الأطفال فى القرية مدللين، بل طبيين وأبرياء يميلون إلى أوليا ويبتسمون لها.

لم تستشف الأم ما يفزع أوليا، ولم تعرف ما هو الشيء الدميم فى هذه الدنيا الذى تبصره  
عيناها البديعتان التعيستتان دون غيرهما من العيون.

قالت لها:

. لا تخافى يا حبيبتى.. لا تخشى شيئاً يا ابنتى، أنا معك.

فنظرت أوليا إلى أمها وصرخت ثانية:

. أنا خائفة.

. من يخيفك هنا؟ هذه أنا.. أمك!

. أخاف منك.. أنتِ مخيفة!

وأطبقت أوليا عينيها لكى لا ترى أمها.

لم يدر أحد ما الذى تراه أوليا، ولم تتمكن هى لذعرها من أن تقول شيئاً.

بنت أخرى نمت فى القرية، بنت اسمها "جروشا"، وكان عمرها فى ذلك الوقت أربع سنوات.  
وفقط مع هذه البنت شرعت أوليا تلعب، بل وهامت بها حباً. وكان وجه جروشا مستطيلاً، ولهذا  
سموها "رأس الفرس". وكانت حانقة بطبعها، والأكثر من هذا أنها كانت تكره والديها وتردد أنها  
عما قريب ستقر من بيتها، ستقر بعيداً بعيداً، ولن تعود ثانية أبداً، هذا لأن: (هنا سيى.. وهناك  
حسن).

طفقت أوليا تتحسس بيديها وجه جروشا، قائلة لها إنها جميلة. وراحت عينا أوليا تسرحان  
بوله فى وجه جروشا المتجهم الحانق كأنها تبصر أمامها صديقة بهية الوجه محبوبة وطيبة.  
وذات يوم، تفرست جروشا بالصدفة فى عيني أوليا، وساعتها لحظة رأت فيها نفسها هناك، كما  
هى فى الواقع، فزعقت من الهلع هاربة إلى بيتها.

منذ ذلك الحين صارت جروشا أطيب قلباً، وكفت عن الغضب على والديها، وعن تكرار أن  
البيت لا يرضيها. وكانت حين تنتابها من جديد مشاعر النعمة، تتذكر هيئتها المخيفة فى عيني  
أوليا، فتصاب بالذعر من نفسها، وتعود مسالمة وديعة.

وعلى الرغم من أنه كان محزناً لأوليا نفسها أن ترى الوجوه الطيبة قبيحة، والورود أيضاً  
قبيحة، إلا أنها كانت طفلة، وشأن كل الأطفال الصغار طعمت الخبز، واحتست اللب، فكبرت،  
ومضت الحياة، وما أسرع ما تمضى، فأتمت أوليا عامها الخامس ثم السادس فالسابع.

فى هذا الوقت عاد إلى القرية دميان، ذلك الرجل الذى كان قد هاجر منذ زمن، ولم يدر أحد حينذاك إلى أين ذهب؟ عاد بسيطاً وفقيراً، وجعل يحرث الأرض مثل باقى الناس. وعاش حتى سنوات شيخوخته رحيم القلب. بل وتمنى لو يأخذ أوليا لتعيش معه ابنة له فى بيته، لأنه عجوز ووحيد. لكن والدى أوليا رفضا ذلك، لأنهما، منذ حملها إلى الكوخ صغيرة، لم يعودا قادرين على الحياة بدونها.

فى عامها الخامس كفت أوليا عن الصراخ والهرب فرعاً، وأصبح الحزن لا غيره يستولى عليها حين ترى أمامها إنساناً طيباً ورائعاً حتى لو كان جدتى العجوز، أو شخصاً آخر رقيقاً. وكانت تبكى فى أغلب أوقاتها. لكن الصورة الحقيقية لمن تنتظر إليهم ظلت تسطع فى عمق عينيها الواسعتين كما من قبل. أما هى نفسها فلم تكن تبصر الحقيقة، لكنها كانت تبصر الكذب. وكانت عيناها وهما تظالعان الدنيا، كأنما تتجمدان دهشة مما تبصران... صريحتان، حزيتان، لا تفهمان ما تراه.

حين أتمت أوليا السنة السابعة من عمرها، صارحها والدها بأنهما لا يمتان إليها بصلة قرابة، أما عن والديها الحقيقيين، فلا يدرى أحد أين هما، وهل هما فى عداد الأحياء أم الأموات؟ رأى والداها أن هذا هو التصرف السليم، ورغبا أن تعرف أوليا الحقيقة منهما لا من الغرباء الذين سيخبرونها بتلك الحقيقة فى يوم ما، لكن بطريقة مؤلمة تؤذى روح الطفلة.

وسألت أوليا:

. وهل هما أيضاً مخيفان؟

أجاب والداها:

. لا.. إنهما والداك. ولا يجب أن يكون هناك من هو أحب منهما لديك.

وتهدت أمها قائلة:

. أنتِ لا تبصرين الحقيقة يا ابنتى. إن عينيك تالفتان.

وزدادت أوليا كآبة منذ ذلك الوقت. وانقضى صيف بعد ذلك، وقررت أوليا أن تهجر الكوخ عند حلول الخريف باحثة فى العالم عن والديها اللذين هجراها. ولكن لم يكد الصيف ينقضى حتى جاءت إلى القرية فلاحاً متقدمة فى السن، تنتعل خفين من اللوف، حاملة على ظهرها بقجة خبز. وكان من الواضح أنها متعبة وأنها قطعت طريقاً طويلاً على قدميها.

وفى الطريق، حيث انتصبت شجرة الصنوبر العتيقة عند البئر، جلست المرأة، وأخذت تتطلع إلى الشجرة. ثم نهضت بعد ذلك وتحسست الأرض من حول الشجرة كأنها تبحث عن

شىء ما، ملقى، ومنسى، منذ وقت بعيد. بدلت المرأة خفيها، ثم مشت صوب كوخ دميان،  
وقعدت على المصطبة.

لم يكن هناك مارة فى الطريق، كان أغلب الناس فى ذلك الوقت يعملون فى الحقول. وظلت  
المرأة القادمة من بعيد جالسة وحدها فترة طويلة. حتى خرجت طفلة من أحد الأكواخ ونظرت إلى  
المرأة الغريبة وراحت تدنو منها.

قالت البنت ذات العينين الواسعتين صافيتى الضياء:

. أنتِ لست مخيفة.

ونظرت المرأة القادمة من بعيد إلى البنت، وأمسكتها من يدها، ثم ضمتها إليها وأطالت  
احتضانها.

لم ترتعد البنت، ولم تصرخ. وحينذاك قبلت المرأة عين الطفلة، ثم الثانية، وانخرطت فى  
بكاء. لقد أيقنت أن أوليا ابنتها، ميّزتها بقلبها الذى ارتعش، ميّزتها بعينيها، بالحسنة التى على  
رقيبتها، وبتكوين جسمها الدقيق.

قالت المرأة:

. كنت شابة وغبية فرميتك للناس. والآن عدت لأخذك.

التصقت أوليا بصدر المرأة الناعم الدافىء ونعست. قالت المرأة وهى تقبل عيني أوليا  
نصف المغلقتين: "أنا أمك".

داوت قبلة الأم عيني أوليا فصارت ترى الضوء الأبيض المشمس بشكل مألوف مثل كل  
الناس. وأصبحت فى هدوء وثبات تتطلع أمامها، بعينين رصاصيتين، واضحتين، ولم تعد تهاب  
أحداً. صارت ترى كل ما هو طيب على الأرض باهر، فى صورته السليمة، دون أن يلوح لها  
مفزعاً ودميماً، وكفت عن رؤية الشر والقسوة رائعين كما كان يحدث فى السابق وهى بلا أم.  
غير أنه منذ تلك اللحظة، اختفى ما كان يلمحه الآخرون فى عمق عيني أوليا، وتوارت منهما  
صورة الحقيقة المستخفية، ولم تحس أوليا فاجعة أن الحق لم يعد يضىء فى عينيها، ولم تحزن  
أما حين علمت بهذا.

قالت أمها:

. لا يحتاج الناس إلى رؤية الحقيقة، إنهم يعرفونها من أنفسهم، أما الذى لا يعرفها فإنه لن  
يصدقها، حتى لو شاهدها بنفسه.



فى ذلك الوقت ماتت جدتى العجوز، ولم يعد بوسعها أن تحكى لى أكثر من هذا عن أوليا.  
لكنى بعد مرور زمن طويل، رأيت أوليا بنفسى. كانت قد صارت شابة جميلة جمالاً أكثر  
مما يحتاجه الناس. لذلك امتلأ الناس بها إعجاباً.. لكن قلوبهم غدت فائرة نحوها

\*\*\*

## الألوان

لا أذكر أن لحظة مرت بى.. دون رسم.

وقد همت . أكثر من أى شىء . بالتوقف عند الصور وإدامة النظر إليها.

ومازلت أحفظ . من ذكرياتى الأولى . صورة جلفر(1)، وهو راقد، وقد باعد ما بين ساقيه،  
وقد مشت بينهما طوابير الأقسام العسكرية، وكذلك اللوحات الملونة التى ازدانت بها كتب أساطير  
الأخوين "جريموف"(2): حذاء الكريستال، القنفذ، أكلة لحوم البشر، وحية فى ذاكرتى الصور  
السوداء الملحقة بأسطورة "الجنية"(3)، وما تزال تتردد بين جوانحى عبارة الجنية: "ارفعوا جفنى،  
أنى لا أرى.. لكنها تتردد وقد زادت "أى شىء" ... "أنى لا أرى أى شىء".

كنت أرسم لا بالقلم، بل بالألوان المائية الرخيصة التى كانت تباع حينذاك فى موسكو . ولم  
يكن بوسعى أن أبصر . بهدوء ولا مبالاة . العلب الورقية التى تفتحها فتجدها مشتملة على دوائر

---

(1) جلفر: بطل رواية يوهان سوفييت الشهيرة "جلفر فى بلاد العمالقة" المترجم

(2) الأخوان جريموف: قاما بتأسيس علم اللغة الألمانية، صدرت لهما "أساطير للأسرة  
والأطفال" وترجمت إلى الروسية فى 1812، وكانت منتشرة حينذاك. المترجم

(3) الجنية: جن فى الأساطير الروسية يظهر فى هيئة امرأة جميلة، تعيش بنعش فى المقابر،  
وتنادى من يتردد على المقابر من الشباب، فيقعون فى غرامها، فتنفرد بهم، وحين يستجيبون  
لندائها "ارفعوا جفنى.. أنى لا أرى"، تشرع فى إضحاحهم، حتى يقعوا صرعى الضحك  
المتواصل. المترجم

الألوان المختلفة.

ولم أكن ألهو بالألعاب المألوفة، ولكن اللعب فى موقد التتاك الصفيحي كان داءً قاتلاً يسيطر علىّ. وفيما بعد ظهرت بعض اللعب . التى لم أتلقاها كهدايا . مثل الدب الخزفي الصغير، الذى سيتحول إلى جزء من أساطيرى فى وقت لاحق، وكذلك الطيارة الورقية(4) التى خرجت من بيضة، وستصبح ملمحاً مما أرسمه، وهكذا انتقلت من الخيط الذى يلتوى، إلى الأفعى، ومن الأفعى إلى تمثال "أوفيس الحكيم"، وكان أبى قد أهدانى إياه قبل موته، فظل ذكرى منه.

ولم تكن الألوان عندى لهواً، بل عملاً متعباً.

فى الربيع، حينما كانوا يصبغون البيض لاستقبال عيد الفصح، كنت ألح عليهم ليعطونى ما تبقى من صبغة، وكذلك فرخ الورق الذى كانوا ينشرون البيض فوقه بعد انتشارال البيض من الصبغة، ذلك أن آثار ألوان البيض وهو يجف على الفرخ كانت تتشبع مختلف الأشكال والرسوم المدهشة. وكان بوسعى أن أرنو إلى تلك الأشكال دون انقطاع لساعات طويلة، أطول مدة ممكنة طالما لم يصب الدوار رأسى، كنت أزر عيني وأرصد موجات الضوء من اللون السماوى وهى تسبح متكاثفة عند أهدابى الفضية إلى عيني، أو استغرق . من دون أن أزر عيني . فى التحديق إلى قصاصات الحرير متعددة الألوان فى اللحاف المضرب.

وكنت أتناول كل ما يقع تحت يدي من أدوات . شرط أن تكون معدنية . ولم يكن هناك شىء يفوق ميلى إلى قلابة الحطب فى المدفأة، الحديدية الضخمة التى لا يعرف أحد كيف آلت إلينا، فلم يكن بدارنا مدفأة، وكنتُ آخذها وأذهب إلى إحدى الغرف فألصق أذنى بالحائط وأسد أذنى الأخرى بأصبعى، ثم أضرب الحائط بالحديدة، وأظل ساعات أستمع إلى رنين الصوت المتردد، الذى ينداح وهو يعلو سابحاً فى موجات ملونة.

لم يكن اللون والصوت عندى لينفصلان.

وكننت أميز أجراس الكنائس، ليس بأصواتها فحسب، فقد كان كل جرس يصطبغ عندى بلونه الخاص: فجرس كنيسة "رويلوف" كان يرن فى أذنى أزرق اللون، سابحاً فى موجة من النجوم الفضية، وكان جرس كنيسة "سيمونوف" النائية يرن نحاسياً أخضر اللون، أما جرس كنيسة "إيفان العظيم" فكان يسرى وينفذ حتى من خلال أطر النوافذ المزدوجة فى البيوت البعيدة عند بوابة موسكو، ويصب فى روى مثل فيضان نهر موسكو: أحمر داكن الحمرة، وغامق مخملى.

---

(4) الطيارة الورقية: وهى الطيارة التى يلعب بها الأطفال فيطلقونها فى السماء، وتسمى بالروسية "الثعبان الورقى" لأن خيطها يتلوى فى الهواء وهى ترتفع، ويبدو ورقها المشدود مثل رأس الثعبان. ولذلك يتخيل الكاتب أن هذا الثعبان قد خرج من بيضة. المترجم

كان بوسعى أن أحدد اللون من الصوت، ومن لون المرء كنت أحدد صوته.

وكان عندى قِطٌ لم يفارقنى طيلة سبع سنوات، سموه "تاحوم" على اسم القديس ناحوم، وضعته قطننا مع باقى قططها الصغيرة فى يوم مولدى، واختصونى بذلك القط لتسليتى. وكان ميلادى فى بيتنا الواقع خلف نهر موسكو، عند الجسر الحجرى المبنى تمجيداً لذكرى "فانكا كابين"، هناك فى زقاق "تولماتشوفسكى الكبير" قرب معرض "تريتيكوفسكى".

نمت عاماً واحداً، واستيقظت فى السنة الثانية من مولدى على رنين أجراس الكنائس بالساحة الحمراء، لم يخفت ذلك الرنين الأول فى ذاكرتى، ولم يزل انسجامه المميز، والمؤكد أنه هو الذى وُلِدَ فى نفسى قدرتى على تمييز كل ما هو روسى أصيل حقاً، مما هو زائف. فى السنة الثانية من مولدى، انتقلت بنا أمى إلى مسكن آخر بشارع "السد"، ومنه انتقلنا. تحت رعاية أخوالى. إلى "الجسر المرتفع"، وهناك أسكنونا جناحاً منعزلاً بالقسم الخلفى من الدار، وكان يطل على جسر "يارسلا"سكى". وكان ذلك الجناح فيما مضى، مصبغة ومدبغة لوالد جدى وكان معلم صباغة يشرف على العمل بنفسه. إلى جوار المصبغة تتابعت عدة غرف صغيرة، كانت تابعة لمصنع ورق "تايديون"، جعلوها لمعيشة العمال.

من بيتنا القديم خلف نهر موسكو، انتقل معنا إلى المسكن الجديد القط "تاحوم".

وكان القط أخضر العينين، ذا شوارب بيضاء طويلة وشعره المنتفش رصاصى اللون، ولا ينام إلا قرب سريرى، فإذا جلست منهمكاً فى ألوانى، وجدته دائماً حاضراً إلى جوارى، وبدا لى أنه كائن كبير، تحيطه هالة من النور، مثل نور يوم غائم هادىء يشيع الأحلام بلا نهاية، وكنت أنسج له الأساطير من خيالى، وأكلمه، فينصت إلىّ بانتباه، وبدا لى فى بعض الأوقات أنه بدوره يقول لى شيئاً ما، وكنت أصيخ السمع باذلاً كل جهدى لأفهمه. وعشنا معاً صديقين على ذلك النحو، أنا أرسم، وهو ينظف وجهه ببرائته، ولم أضربه أو أعذبه أبداً، ولا أعرف صحة ما يقوله الناس: "القط يحب خنأقه"، لكن الأرجح أن القطط تصبر على من يؤذيها لا أكثر. وكنت أضمه إلىّ بحرص، ولم أقرصه أبداً أو أجذبه من ذيله، لكنى كنت أصبغ شعره بالألوان التى أحبها.

لقد همتُ بالألوان، وتعلقت حتى برائحتها المميزة.

ولو سألونى حينذاك "من تود أن تكون حينما تكبر؟"، لأجبتهم بلا تروى: "أريد أن أصبح واحداً من عمال الطلاء والنقاشين عند صمويلوف". وصمويلوف كبير القساوسة فى الكنيسة، كان أشقر فى شبابه، والآن صار شعره أشيب يخالطه لون أخضر خفيف، وكان يبدو لى فى هيئة "يوسف النجار" وهو واقف يوم الجمعة الحزينة خلف الهيكل بالكنيسة يخرج الثوب المرسوم عليه صورة المسيح، ثم يرتل باكياً بدموع تتألق بلون ذهبى من انعكاس النور الأرجوانى للشموع المحترقة عليها.

وكان صمويلوف معلم طلاء، يستعين بمجموعة من العمال تعيش فى القبو ببيته الأبيض المؤلف من طابق واحد، ناصع النوافذ، بزقاق "فارابينسكى".

وقد بدت لى وجوه البشر عامة مضيئة، وخاصة وجوه النقاشين التى تراءت لى أكثر استتارة من غيرها، وبالذات "ماتقى"، وكان ممشوق القوام، يحسن ترتيل الألحان الكنسية بصوت رقيق، يشبه موج الرنين العذب الذى ينداح فى الجدار حينما أطرقه بعامود الحديد، كان يرتل بضياح معدّب وبنبرة غارية كلكظة الشفق، وحينما كانت روحه تنوء بأثقال كل ما جرى له فى حياته، وكل ما لن يقع له أبداً، كل ما قد رآه، وكل ما لن يراه أبداً، حينذاك، كان يرتل بصوت كأنه يوم غائم.

وكان يتحدث بطريقة تبعث على الضحك، هذا غير جملة التى يرسلها مقفاة، مؤكداً كلامه بالحكم والأمثال على طريقة الأب "فاكوم"، بينما تفوح منه . أثناء ذلك . رائحة المعجون مُثبّت الطلاء طازجة ممتزجة برائحة زيت الكتان.

لا أتذكر ما الذى أسفرت عنه رسوماتى حينذاك، لكنى أذكر بقع الألوان وهى تنتقل من الورق إلى يديّ، ومن يديّ إلى المنضدة، ومنها إلى الأرض فتدوس فيها الأقدام وتلطح بأثارها مساحة أوسع، وذلك من سوء حظ مربيّتى العجوز "بروسكو"ايا سيميونو"تا" التى خيل إليها أن كل الأطفال بنات. فنقول لى: "لو أنك كنت صبية لنظفت الآن ما وسخته". كان صوتها خاشعاً ومسالماً مثل عينيها الغائرتين، الصابرتين، ونظرتها المسدلة على هلع دفين ورتته عن أسلافها من الأفتنان الغابرين.

فى فترة لاحقة، انتظمتُ فى الصف الأول، بمدرسة موسكو الرابعة، وكانت تقع فى بيت قديم ملك "رازوموفسكى" بشارع "باكرو" فى مواجهة حانوت "بوتكينسكى" للتحف العتيقة، وحانوت "تشويفسكى" لبيع الخبز. خارج الفصل انخرطت فى تسلية وحيدة هى رسم مختلف أشكال الذبول وحصل الشعر.

بعد انتهاء الدراسة، كنت أخرج مع زميلى فى الصف "بوجال" وكان مثلى أخرق الطبع يمزق ثيابه . وكان الخياط "بول" قد فصل لكل منا بذلة ومعطفاً . وبينما نحن فى طريق العودة كنا نمر على البيوت وندق الجرس عند كل مدخل فنزعج عطفة "ففيدسكى" بأكملها التى ضمت من السكان عدداً لا يقل عن الناس فى سوق "أفيننا".

وفى الصباح، ونحن فى طريقنا إلى المدرسة كنا نطبع بالطباشير صورة الشيطان على ظهور المارة، وذلك بأن ندعك بالطباشير راحة الكف واصبعين اثنتين فقط، ومن لعابنا نرشق عينين وفماً مفتوحاً فى راحة الكف، ثم نخبط العابرين كأنما سهواً على ظهورهم، فتنطبع عليها تلك الصورة، وكان كثير من الناس البسطاء والمعتدين بأنفسهم يمضون وهم يحملون على ظهورهم . دون أن يعرفوا أو يشاهدوا . ذلك الختم الطباشيرى، الذى يشبه "الأس الدينارى" ببذلة

المساجين، ويمضون به من شارع "بوكروفسكى" إلى شارع "ماراسكايا" فى المدينة. ذلك الشيطان الطباشيرى كان الرسم الوحيد، الواقعى، الذى رسمته. على أية حال، لم يسأل أحد عن اسم تلك الصورة، لا فى شارع "إيليانكا" ولا فى "فارفاكا"، ولا فى "نيكولسكايا"، ولا بأى زقاق من أزقة المدينة، ذلك أن أصغر وأغيبى طفل، كان يشهق مدهوشاً حين يرى الرسم على ظهر أحد ويصيح: "يا الله.. شيطان هولندى".!

ولكنى وحدى. من غير زميلى بوجال هذه المرة. كنت أرسم بالطباشير على الجدران التى كتب البوليس فوقها: "ممنوع الوقوف نهائياً فى هذا المكان".

ولم تكن رسومى تلك مفهومة لأحد، مثلها مثل ألوانى، فقد كانت كلها مرسومة على نحو غير مألوف، وبفخامة غريبة، تشبه العالم غير المألوف الذى مضت فيه حياتى المبهمة، والتى تخللها إحساس مضطرب ومرتعج، كذلك الذى يحسه الإنسان فى حلم من الأحلام المخيفة.

وكنت أرى أحلامى كلها ملونة، وكل ما فيها ضخم على حالته الأولى السابقة على كل شىء، ورافقت الأصوات العذبة تلك الأحلام وكنت أسمع بينها صوتى أنا، يتردد رناناً، سماوى اللون.

لقد صبغت الألوان كل ما وقع عليه بصرى ورأيتة، وكل ما سمعته. أيضاً فقد تردد كل شىء فى أذنى أصواتاً.

وذات يوم، مثلما يحدث فى الأساطير، ألصقت أذنى بالأرض، وضعتها فوق حجر روسى وحشى، فإذا بالحجر الوحشى الرمادى يكلمنى.

\*\*\*

## السفر

ذات يوم، فى أبريل، أدركت أنه لن ينقذنى إلا شىء واحد فقط: السفر. لا بد من السفر. لا يهم إلى أين، وسيان كيف: بالطائرة، أم على ظهر سفينة، فى عربة تجرها الخيول، أو حتى فى عربة نقل. لا بد من السفر فوراً. وللأسباب التى دفعتنى إلى هذه الحالة السيئة قصة أخرى، تستغرق روايتها وقتاً طويلاً، فضلاً عن أنه لا داعى لذلك. المهم أن الوقت كان فجراً، حين شرع الأرق يعذبنى دفعة واحدة، وشعرت بصدري يختنق. وفسر الأطباء ذلك بإرهاق عصبى، لكنى

كنت أعرف أن هذا يعود إلى سبب آخر، ربما لأن الرعود كانت تتسكع هنا وهناك، وأن تيارات الهواء الدافئ قد وصلت إلى "بادولسك" وأخذت تتقدم نحو موسكو، لذلك يخيل إليّ أنني أختنق، وأن الدم لا يصل إلى مخي، وأنى سأموت إن لم أفلت غداً من هذا القفص المبنى من الجص، والورق الملتصق على الجدران برسومه التجريدية، والأرفف المطلية والكتب التي عليها، وجذد الكتب، والفطائر الصغيرة، والشاي، والصحف، والمنقشات، وأجراس التليفون، والإبصالات، وأنواع الزعل، والآمال، والإرهاق، والوجوه الحبيبة. سأموت إن لم أفلت من كل ذلك.

ليس من السهل تفسير ما ينتاب المرء قرب الفجر في أبريل، حينما يرتج ليلاً برواز النافذة المفتوحة للريح، ويطقطق شريط الورق الملتصق أسفل الشباك وهو ينسلخ(1).

وحل يوم رمادي، ثم انقلب بعد قليل فصارت السماء زرقاء صافية بلا سحب. وخرجت إلى الشارع. للمرة الأولى في هذه السنة. من دون غطاء رأس، وقصدت إدارة تحرير إحدى الصحف كي أحصل منها على تكليف بمهمة صحفية خارج موسكو، وأسافر في الحال. وكان البعض من هذه الصحيفة قد دعاني ذات يوم لمأمورية صحفية والآن ليس مفهوماً لهم ما الذي أريده بالضبط. حكى لي رئيس تحرير قسم "الصناعة". وكان رجلاً ضئيلاً معتلاً يرتدى قميصاً من "الجرسيه". فقال إنه تجرى على قدم وساق، في مدينة "ساليينكامسك" ومدينة "كاندابورج" عملية بناء المجمعات الضخمة لإنتاج الورق، أما في مقاطعة "تيومنسكي" فقد تم اكتشاف آبار نפט جديدة. الأهم من كل هذا ما يحدث في مقاطعة "إيركوتسكايا"، حيث يقومون ببناء حوض صناعي ضخم. وقال الرجل "أما إذا تحدثنا عن الصناعات الكيماوية الكبرى، فلا يمكن إلا أن نشير إلى مجمع "توفالينسكي" للكيماويات، فقد انتهوا من بناء الأجنحة الإضافية لغاز النوشادر، وعمليات التركيب، والتحويل، وهذا قبل انتهاء الفترة المحددة بمدة".

قلت له إن كل ذلك يثير اهتمامي على نحو غير طبيعي، وبنفس الدرجة، لهذا بالتحديد لا أستطيع أن أختار واحداً من هذه الأماكن بسهولة. وألمحت إلى أنني كنت أود لو عثرت على موضوعات درامية من قلب المصانع والإنتاج، مشكلة حامية تتكشف فيها مصائر الناس ومختلف وجهات نظرهم في الحياة.

وقال رئيس القسم على الفور: هذه الموضوعات ستجدها أينما شئت. وانعقد على وجهه تعبير غريب مزدوج من الشجن والغطرسة في نفس الوقت. وكان، وهو يتحدث معي يدرج طوال الوقت بأصابعه فوق المنضدة قلماً من النوع الأجنبي.

شكرته قائلاً إنني سأفكر في الأمر، وخرجت وفي نفس الوقت خرج معي إلى الردهة شاب كان حاضراً معنا، ملتزماً الصمت أثناء الحوار. أخذنا نهبط على السلم معاً وفجأة وجه إلى سؤالاً:

---

(1). يلصق الروس شريط ورق بالشباك ليمنعوا تسرب الهواء البارد إلى الغرف. المترجم

. أنت تبحث عن موضوع يهزك؟

قلت له:

. طبعاً. إنها مشكلة. أحتاج إلى موضوع يدفعني للانفعال.. الانفعال عليه اللعنة! إنى أجد نفسى بلا أية انطباعات تحركنى. قد يبدو كلامى غيباً، لكنها الحقيقة.

وشعرت ببعض الخجل، كأنى اعترفت لأحد أننى مفلس بلا نقود ورجوته أن يقرضنى. لكن هذا الشاب كان يود مساعدتى بصدق، هذا ما أحسسته.

قال:

- إذا كنت تبحث عن موضوعات ذات أثر، فليس ضرورياً على الإطلاق أن تسافر إلى مكان بعيد.. إلى "تيومين" أو "إيركوتسك"، أذهب إلى الأماكن القريبة "كوركسك" أو "ليبتسك"، إنها لا تقل قيمة وأهمية عن سيبيريا أى والله.

سألته (وقد سعدت بينى وبين نفسى إذ أفصح بكلماته هذه عن رأى الشخصى):

. أتظن ذلك؟ على أية حال أنت محق، فليست المسألة فى الكيلومترات..

عندما خرجت إلى الشارع كان منتصف اليوم مشمساً فى عزه. فى مواجهتى، عند مدخل دار العرض، وقفت زحمة من النساء، مررت من بينهن ثم استدرت إلى اليسار وتجاوزت التمثال الذى كان يقف حوله دائماً حشد من أهالى الريف بمعاطف طويلة والكاميرات بأياديهن. انحدرت فى الشارع العريض وواجهنى سيل ربيعى من البشر، غزير ومتماسك، يتحرك ببطء. حدقت إلى أوجه الناس التى تتعاقب أمامى بلا نهاية، ثم تخفى خلف ظهرى متوارية بلا أثر فلا تلوح بعد ذلك فى حياتى أبداً. وفكرت: لماذا أسافر إلى "كوركسك" أو "ليبتسك"، بينما لا أعرف ضواحي موسكو كما يجب. ولم أذهب إلى "ناوفومينسك" مرة واحدة. ولا أدرى شيئاً عن "ميتيشى"، بل وهناك شوارع ومناطق فى موسكو نفسها لم أشاهدها إطلاقاً.

بعد نصف ساعة، كنت أهبط من "الترولى باص" قرب المنزل الذى أسكن فيه. وتوقفت عند زاوية شارع "بيشانوى الثانى"، عند محل بيع أطعمة المرضى، تلفت حولى، وشاهدت الحديقة العامة، والأشجار العارية من الأوراق، والأفرع الرمادية التى ضاعت تحت الشمس، والدكك الخشبية المتراسة دائرة حول النافورة وقد جلست مجموعة من النساء والرجال المسنين المحالين إلى المعاش، يعرضون وجوههم للشمس. جلسوا متلاصقين، كل خمسة على دكة. لم أكن أعرف أحداً منهم. وكانت الشمس تحنو على جلودهم المجعدة المترهلة، بعضهم كان يبتسم، بينما بدت وجوه البعض الآخر وقد تجمدت فى بلادة، قسم آخر كان النعاس يغالبه.

توقفت قليلاً ثم اتجهت إلى مدخل المنزل. دخلت المصعد وارتفعت إلى الطابق السادس، هناك خرج جاري "داشنيكين" من شقته المواجهة لثقتي. مد لي كفه صامتاً ليصافحني. كفه التي ترتجف قليلاً طوال الوقت، ثم هرول هابطاً على الدرج إلى أسفل. كان متعجباً دوماً، يمشي مقوساً كتفيه إلى الأمام، وبعينيه هم رهيب لا يخبو. كان يعمل "سمكري" في ورش تصليح الترموايات. اعتقدت جارته . التي تسكن معه بنفس الشقة . أنه رجل مجنون، فأبلغت عنه المستوصف النفسي تطلب أن يضعوه بالمستوصف. قبل ذلك بعدة أيام جاعتني ورجتني أن أكتب أنا الآخر بلاغاً مماثلاً، أو على الأقل أؤكد أنه يحيل حياة زوجته وابنته التلميذة بالسنة الثالثة إلى جحيم بمشاجرات لا تنتهي. وكانت ضوضاء الشجار بل والعراك تتناهي إلى شفتي في كثير من الأوقات، وأحياناً كانت هذه الجارة وزوجها و "داشنيكين" نفسه يندفعون خارجين من الشقة إلى بسطة السلم وهم يتشاجرون ويصرخون. وقد أكدت ذلك. لكنني فيما بعد تذكرت كل هذا فجأة، وسألت نفسي: لماذا كتبتُ ذلك البلاغ؟ إن بوسعهم أن يجربوا الرجل إلى المستوصف بالفعل؟ وحين خطر لي ذلك توجهت إلى جارتني في نفس المساء وطلبت منها أن تعيد إليّ البلاغ الذي وقعته، لكنها قالت لي إنها قد أرسلته بالفعل، وطمأننتني: لن يضعوه في المستوصف.. كل ما في الأمر أنهم سيخيفونه قليلاً.

لم يكن البلاغ كما هو واضح قد أحدث أثره بعد، لأن "داشنيكين" عندما صافحني، شد على يدي، وأشعرني أنني صديق قديم، وحين هرول هابطاً على السلم، سمعت خبط حذائه الثقيل، ثم سعاله في الطابق الثالث أو الرابع بصوت مرتفع، وأعقبه بالبصاق. لم يكن صبره يكفيه أبداً للوصول إلى الشارع.

فتحت باب شقتي بمفتاحي ودخلتُ. كان جيراني يطهون سمك "نافاجا" في المطبخ. وتحتنا في الطابق الخامس . حيث عاشت أسرة كبيرة من حوالي عشرة أشخاص . عزف أحدهم على البيانو، فوصلني الصوت. نظرت إلى نفسي في المرآة، وبدا لي وجهي للحظة غريباً، خاملاً، وجال برأسي أنني لا أعرف الكثير عن نفسي

\*\*\*

**مزمور**

بدا أول الأمر أن فأراً يخربش الباب. لكن صوتاً بشرياً تناهى غاية في الرقة:



. ممكن أدخل؟

. ممكن. تفضل.

صرت مفاصل الباب.

. تعال واجلس على الأريكة.

(من عند الباب)

. وكيف سأمشى على خشب الباركيه؟

. امش بالراحة، ولا تقفز. هيه.. ما آخر الأخبار؟

. لا شيء.

. اسمح لي، من كان يبكي إذن صباح اليوم في الردهة؟

(صمت ثقيل)

. أنا بكيت.

. لماذا؟

. ماما ضربتني.

. لماذا؟

(صمت متوتر)

. لأنى عضضت أذن شوركا.

. هكذا إذن؟

. ماما تقول إن الولد شوركا لنيم. يتحرش بي دائماً ويسلبني "الكوبيكات" (1).

---

(1) الـ "كوبيك" أصغر وحدة في العملة السوفيتية. المترجم

. سيان، ليس هناك قانون يسمح لك بأن تعض آذان الناس بسبب الكوييكات، والنتيجة إذن أنك ولد غبى.

(زعل)

. لست صاحبي.

. لا داعى.

(صمت)

. سيعود بابا، وسأقول له. (صمت) سيضريك بالنار.

. آه.. هكذا.. فى هذه الحالة لن أعد لك الشاى. ولماذا أعده ماداموا سيضربوننى بالنار فى كل الأحوال؟

. لا.. أنت جهاز الشاى.

. وستشرب معى؟

. عندك حلوى ملبسه؟ هه؟

. بالتأكد.

. إذن سأشرب.

جسمان إنسانيان اثنان. كبير وصغير . قعدا القرفصاء.. أبريق الشاى يغلى بجرس موسيقى، مخروط الضوء الكهربائى الساخن ملقى فوق صفحة من كتاب "جيروم. جيروم"(2).

. أظن أنك نسيت القصيدة؟

. لا. لم أنس.

. طيب قلها.

. سأشء.. سأشترى لنفسى حذاء..

---

(2) جيروم. ك. جيروم - مسرحى وروائى إنجليزى معروف، اشتهر بكتاباتة الساخرة. ولد فى 1859/5/2، وتوفى فى 1927/6/14. المترجم

. لبذلة السهرة، وسأغنى كل ليلة..

. مزموراً.

. مزموراً، وسأقتنى كلباً..

. ولن..

. ل.. ن اهد.. تم..

. سنعيش بطريقة أو بأخرى..

. أو بأخرى بطريقة س.. ن.. ع.. يش.

. هذا هو . سيغلى الماء، فنشرب الشاي ونعيش.

(تنهيدة عميقة)

. س.. ن.. عيش.

. أزيز المياه. جيروم. البخار. مخروط الضوء. الباركيه اللامع.  
. أنت وحيد.

. وقع جيروم على الأرض. انطفأت الصفحة.

(صمت)

. من قال لك هذا؟

(بوضوح هادىء)

. ماما.

. متى؟

. حين كانت تحوك لك الزر.. كانت تحوك تحوك وتتكلم مع ناتاشا..

. سسس.. انتظر، انتظر، لا تتحرك وإلا اندلق عليك الماء المغلى.. أوف!

. ساخن.. أوف!  
. خذ الملابس التي تعجبك.  
. أريد الملابس الكبيرة هذه.  
. انفخ فى الشاى.. انفخ.. وكف عن تحريك قدميك.

(صوت نسائى من الخارج)

. سلافا!

دق على الباب. صرير مفاصله يبهجنى.  
. مرة أخرى سلافكا عندك. سلافكا، هيا إلى البيت.

. لأ.. لأ.. نحن نشرب الشاى.  
. لقد احتسى الشاى منذ وقت قليل.

(صراحة ناعمة)

. أنا.. لم أشرب.

. فيرا إيفانوفنا، تفضلى شاى.

. شربت منذ قليل.

. تفضلى، تفضلى، لن أتركك..

. يداى مبلولتان.. كنت أنشر الغسيل..

(المحامى المذنب)

. إياك أن تشد ماما..

. طيب.. اتفقنا.. لن أشدها.. فيرا إيفانوفنا، اجلسى..

. انتظر، سأنتشر الغسيل ثم آتى.

. عظيم. لن أطفىء موقد الكيروسين.

. سلافكا، تشرب وتروح إلى البيت. تنام. إنه يعطلك.

. لا أعطله. أنا لا أعب.

صرير الباب مزعج. مخروط الضوء يتأرجح فى اتجاهات مختلفة. إبريق الشاى صامت.

. أترغب فى النوم؟

. لأ.. لا أريد. قص علىّ حكاية.

. لكن عينيك مغلقتان من النعاس.

. كلا. لا تتغلقتان، قص.

. طيب، تعال إلى هنا. ضع رأسك. إذن.. حكاية؟ أية حكاية أقصها عليك؟ هه؟

. عن الولد.. إياه..

. عن الولد؟ لا يا عم.. هذه حكاية صعبة. لكن لأجلك أقصها.. هيه.. إذن، عاش ولد فى هذه الدنيا.. هيه.. صغير، عمره حوالى أربع سنوات، فى موسكو مع ماما، كانوا ينادونه سلافكا.

. آه.. مثلى؟

. ولد جميل جداً لكنه للأسف الشديد كان مغرماً بالشجار، كان يتشاجر بأى شىء، بقبضة يده، بقدميه، بل وبالحزام. ذات يوم على سلم البيت شاف بنتاً من الشقة رقم 8، بنتاً رائعة جداً، حلوة وهادئة، ومع ذلك ضربها على وجهها بالكتاب.

. هى التى تشاجر.

. انتظر. الكلام ليس عنك.

. عن سلافكا آخر؟

- آخر تماماً. المهم.. ماذا كنت أقول؟ آه.. وطبيعى أنهم كانوا يضربون سلافكا هذا كل يوم، لأنه كان يتشاجر دائماً، ومع ذلك لم يرجع سلافكا إلى عقله،، ووصلت المسألة إلى درجة أنه . فى يوم بديع . تشاجر مع شوركا. أيضاً كان هناك ولد باسم شوركا. المهم، بدون تفكير كثير، انقض سلافكا بأسنانه على أذن شوركا وطلع بنصفها، وهو ما لم يحدث من قبل، وطبعاً تصاعدت الضوضاء.. الناس يضربون سلافكا فيصرخ، وشوركا أيضاً يزعمق.. لكن الناس بطريقة ما ألصقوا أذن شوركا بنوع من الصمغ، أما سلافكا فعاقبوه بالوقفة فى ركن ووجهه إلى الحائط.. وفجأة . وهو واقف . رن الجرس، وإذا برجل مجهول تماماً يظهر، رجل بلحية شقراء طويلة يرتدى نظارة ذات زجاج أزرق، وسأل بصوت جهورى: "قولوا لى من فضلكم.. من هو

سلافكا هنا؟" ويجيب سلافكا: "أنا.. سلافكا". فيقول الرجل: "إذن استمع إليّ يا سلافكا. أنا مراقب كل الأولاد الذين يتشاجرون، وسأضطر يا عزيزي سلافكا إلى إبعادك عن مدينة موسكو إلى "توركستان" ويدرك سلافكا أن العملية ليست بسيطة، فيندم من أعماق قلبه، ويقول: "أعترف.. أنا تشاجرت، ولعبت القمار عند السلم بـ "الكوبيكات"، وبدون إحساس كذبت على ماما وقلت لها إني لا أعب.. لكني لن أفعل هذا مرة ثانية، لأنني سأبدأ حياة جديدة".

ويقول المفتش: "هيه.. هذه مسألة أخرى، وفي هذه الحالة لا بد من مكافأتك على أسفك الصادق". وفي الحال قاد الرجل سلافكا إلى مخزن توزيع المكافآت. وهناك يرى سلافكا ما رآه البشر وما لم يروه من مختلف الأشياء. بالونات، السيارات، المطارات، الكرات المخططة، الدرجات، الطبول. ويقول المراقب: "اختر لنفسك ما تشاء".. لكني نسيت .. ما الذي اختاره سلافكا؟

(صوت ناعس عذب وعميق)

. الدراجة!

. بالضبط.. صحيح تذكرت.. الدراجة. وعلى الفور ركب سلافكا الدراجة وانطلق مباشرة إلى شارع "كوزنيتسكى موس" يتفصح ويضغط البوق، ويندهش الناس الواقفون على الرصيف: "يا له من شخص عظيم سلافكا هذا.. بهذه السرعة ولا يصطدم بالعربات!" أما سلافكا فمشغول يضغط البوق منبهاً وهو يصيح في السواقين: "إلزموا يمينكم!" وتطير عربات السائقين وسلافكا يسرع بدراجته والعساكر يمشون وهم يعزفون "مارش" مسموعاً يدوى في الآذان..

. خلاص؟

صرير الباب. الردهة. الباب. الذراعان البيضاوان الحاسرتان إلى الكوعين.

. يا لله. دعني أخلع عنه ملابسه.

. عودي. سأنتظرك.

. لكن الوقت متأخر.

. لا.. لا.. بل ولا أريد أن اسمع.

. وهو كذلك.

مخروط الضوء. يبدأ الابريق في الأزيز فوق الفتيل. جيروم لا يلزم أحداً . ملقى على الأرض. في فتحة موقد الكيروسين الصغيرة جحيم دقيق ومبهج. سأغنى كل ليلة مزموراً، وسنحيا

بطريق أو بأخرى. نعم أنا وحيد. والمزمور حزين. ليست لدى المقدرة على الحياة. أكثر ما يعذب في الحياة. الأزرار. إنها تسقط كأنها تتحلل. بالأمس هوى زر من الصدر. اليوم واحد آخر من البذلة، وآخر من ظهر السرورال. ليست لدى القدرة على العيش مع الأزرار. لكنى أرى كل شيء، وأفهم كل شيء. لن يعود. ولن يطلق النار على. قالت ناتاشا فى الردهة حينذاك: "عما قريب يرجع زوجى، وسنرحل إلى بطرسبورج". أبدأ لن يعود، لن يعود.. صدقيني. إنه مختف منذ سبعة أشهر. ثلاث مرات بالصدفة رأيتها تبكى. والدمع كما تعرفون لا يدارى. لكنه هو وحده الذى فقد الكثير لأنه هجر هاتين اليدين البيضاوين الدافئتين. هو حر فى هذه المسألة. إلا أننى لا أفهم.. كيف استطاع أن ينسى سلافكا؟

أية بهجة يحملها صرير الباب.

اختفى مخروط الضوء. فى فتحة الموقد. عتمة سوداء. إبريق الشاى سكت منذ فترة. نور المصباح ينظر. عبر الستارة الرقيقة. بآلاف الأعين الصغيرة.  
. أصابعك جميلة. كان لابد أن تصبى عازفة بيانو.

. حين أسافر إلى بطرسبورج سأعزف من جديد.

- أنتِ لن تسافرى إلى بطرسبورج.. خصلات مثل هذه بالضبط تتدلى على رقبة سلافكا مثلك.. أتعرفين.. أنا مهموم. وضع موحش إلى أقصى درجة. الحياة غير ممكنة. أزرار من كل جهة.. أزرار.. أز..

. لا تقبلنى.. لا تقبل.. لابد أن أمشى.. الوقت متأخر..

. لن تخرجى.. هناك ستبكين.. هذه عادتك.

. غير صحيح.. أنا لا أبكى.. من قال لك؟

. أنا عارف.. أرى بنفسى.. ستبكين.. وأنا هنا أحس الوحشة.. الوحشة..

. وماذا أفعل؟ ماذا أنت فاعل؟

ليس هناك مخروط ضوء. لا يضىء المصباح عبر الستارة الرقيقة. ظلمة. ظلمة. ليست هناك أزرار. سأشتري لسلافكا الدراجة. لن أشتري لنفسى حذاء البذلة. لن أغنى المزمور كل ليلة. لا يهم. بطريقة أو بأخرى سوف نحيا ..

\*\*\*

## الفاجعة

فى وقت معين من الصيف تَذيع عطور نبات الشيخ حتى يوشك المرء أن يفقد عقله. يسود الهدوء ويشع ضوء القمر بينما يغمر روحك قلق مزن.

فى تلك الليالى الرحبة المضيئة، وفى ذلك الجو المشبع بعطر لاذع يحلو للمرء أن يسرح بأفكاره فى حرية وجرأة.. ولعله لا يسرح وإنما تتملكه أنواع من الرؤى ويحتشد فى نفسه شعور الترقب لشيء ما.

اختفيتُ بين الأعشاب خلف بساتين الخضروات، وقلبي ينوء بسرور مبهم لا أعرف له سبباً، خسارة.. إن هذه الليالى قليلة فى حياتنا. ليلة من ذلك النوع انطبعت فى ذاكرتى مدى الحياة. كان عمري حينذاك اثنى عشر عاماً. جلستُ فى البستان عاقداً نراعى حول ركبتى وأنا أهدق إلى القمر بثبات حتى طفر الدمع من عينيى. فجأة.. سمعتُ صوتاً غير بعيد لإنسان يبكى بهدوء. التفت مستديراً فرأيت جازنا العجوز نيتشأى. إنه هو.. نحيف صغير الجسم يمشى فى قميص طويل من الخيش ويبكى متمتماً بأشياء غير مفهومة. لقد ماتت زوجته "براسكوفيا" منذ ثلاثة أيام مضت. كانت عجوزاً هادئة الطبع وديعة. عاشا وحيدين تماماً بعد أن تفرق أبناؤهما. وعاشت الجدة براسكوفايا لا يشعر بوجودها أحد، كذلك لم يشعر بموتها أحد حين فارقت الحياة. عرفنا بموتها ذات صباح، وأخذ الناس يرددون:

"براسكوفيا.. العزيزة.. تصوروا؟".

حفروا لها قبراً، أنزلوها فيه، أهالوا عليها التراب.. وانتهى كل شيء.

نسيت الآن هيئتها. كانت تدور حول السور تصيح على الدجاج: "تسيب . تسيب . تسيب". لم تتحرش بإنسان فى القرية أبداً، ولم تسب أحداً قط. كانت موجودة، ثم اختفت. ذهببت عن عالمنا.

فى هذه الليلة المضيئة الجميلة، أدركت وطأة ما يحسه المرء حين يصبح وحيداً، حتى حين يلفه هذا الجو الرائع والدفع والأرض الأم التى لا تبعث على الخوف.

تواريتُ.



كان قميص العجوز طويلاً يصل إلى ما بعد ركبتيه، أبيض باهر البياض فى ضوء القمر. أخذ يمشى ببطء وهو يجفف عينيه بكمه العريض. كنت أشاهده بوضوح من مكانى فقد جلس غير بعيد.

- طيب.. سأهدأ الآن.. ونتحدث بالراحة . قال العجوز بهدوء وهو غير قادر على وقف دموعه . اليوم الثالث لعذابي، لا أدري ما أفعل بروحى. أسقط فى يدي.. افعلى أى شىء. سكن قليلاً.

. يا للمرارة يا بارسكوفايا.. لماذا لم تتطقي بكلمة فى اللحظة الأخيرة؟ هل كتمت عنى زعلاً؟ لو كنتِ بحت لى لصار الأمر أهون.. أما الآن فإننى أفكر.. آخ.. آه.. سكت . غسلناكِ وكفناكِ مثل أحسن الناس. جهز لكِ العراب سيرجى نعشاً جيداً. صحيح كان الناس قلة. أعددنا وجبة الأرز بالسكر. واريناكِ عند طرف المقابر حيث ترقد "دادوفنى" .. فى منطقة جافة.. حسنة، ونظرتُ لنفسى مكاناً هناك. لست أدري ماذا أفعل بنفسى وحدى؟ هل أغلق الكوخ بالمسامير وأسافر إلى إبني "بيتيا"؟ إن كان على إبني فإنه لن يعترض، لكن امرأته.. أنتِ نفسك عارفه أنها لن تتفوه بشىء لكن اللقمة ستقف فى حلقها. السفر خطر إذن.. يا للمصيبة! بم تتصحينى؟

ساد الصمت.

وتملكنى الخوف. توقعت أن الجدة باراسكوفايا ستنطق الآن بصوتها الحنون الصابر.

استمر الجد نيتشاي:

. أضربُ أحماساً فى أسداس.. عند من أعيش؟ يا رب حبلاً أشنق به نفسى وأستريح. ليلة البارحة نعست شوية وشاهدتك كما لو كنت تدورين حول السور تحمليين بيضاً فى غربال.. دققت النظر فوجدت أنه ليس بيضاً، لكن كتاكييت صغيرة صاحية. وبدا لى أنكِ تلتهمينهم واحداً بعد الآخر. تأكلين وتمتدحين مذاق الكتاكييت! يا إلهى.. يا للرب. استيقظتُ وأردت أن أنبهك لتفيقى من نومك ناسياً أنكِ لم تعودى موجودة. يا باراسكوفيوشكا يا حبيبتى.. فلتمس كلماتى روحك ذاتها.

وظفق الجد نيتشاي يئوح بصوت مرتفع مرة أخرى.

حينئذ دب الصقيع حتى فى عظامى.

صار يعوى بطريقة غريبة، منخرطاً فى أنين ممتد:

. هيه.. هيه.. أو.. ذهبتِ عنى.. وما فكرت.. أين أذهب أنا.. آه.. لماذا لم تتكلمى؟ لكنك  
قد استدعيت طبيباً من المدينة.. يشفى الناس على أياديهم.. لم تتطقي بشىء.. رقدت ومت!  
يمكننى أنا الآخر أن أفعل ذلك .

تمخط نيتشأى، جفف دمعته وتتهد:

. هل ذلك صعب عليك يا باراسكوفيشكا؟ هل ترغبين فى العودة إلينا هنا؟ إنك تترددين  
على فى نومى.. تعالى لى فى أحلامى، تعالى ولو باستمرار لكن فى صورة طبيعية.. يعرف  
الشیطان وحده ما هى حكاية الكتاكيت فى الحلم الأخير..

هنا بدأ العجوز يهمس بكلامه، فلم التقط نصف ما قاله.

. بل كدت أقدم على الحرام.. وما فى هذا؟ تقع مثل هذه الحوادث، أنا سمعت بذلك، يدفنون  
الشخص ويتضح أنه لم يموت. فى قرية "كرای أوشكين" دفنوا امرأة لكنها أخذت تئن فنبشوا القبر  
وأخرجوها. فى الليلتين المنصرمتين.. كنت أطوف حول قبرك.. أرهف السمع لكنى لم أستمع إلى  
شىء.. وكنت قد حزمت أمرى بالفعل.. يقولون إن نوماً ثقیلاً يجثم على الإنسان فى بعض  
الحالات.. ويفكر الناس جميعاً أنه توفى وهو لم يموت.. بل نائم فقط؟

عند هذا الجدار تعبت إلى أقصى درجة.

شرعت أزحف.. وأزحف.. هارباً من بستان الخضروات. وانطلقت أجرى إلى بيت جدى.  
حكيت له كل شىء. ارتدى جدى ملابسه، وعدت معه نقطع نفس الطريق.

سألنى جدى مدققاً:

. هل بدا أنه يكلم نفسه.. أم كأنما يتحدث معها؟

. بل كان يتحدث معها، وجعل يسألها النصيحة كى تدله على ما يفعل.

. سوف يُجن ذلك التيس العجوز. لا تستبعد أن ينبش القبر فعلاً. يجوز أنه شارب خمر؟

. لا، إنه حين يسكر يغنى وينبسط ويتذكر ربه.

كنت أعرف ذلك.

حين تنهى وقع خطواتنا إلى نيتشأى لزم الصمت.

صاح جدى بشدة:

. من هنا؟

مر وقت طويل ونيشاي لا يجيب.

. من هنا! إني أسأل؟

. ماذا تريد؟

. أهو أنت، نيشاي؟

. نعم..

اقتربنا منه. كان الجد نيشاي جالساً على الأرض متربعاً على الطريقة النثرية. رفع عينيه متطلعاً إلينا من تحت. كان مستاءً للغاية.

سأله جدى:

. من كان هنا سواك؟

. أين؟

. هنا.. لقد سمعتك.. كنت تتكلم مع شخص آخر.

. هذا ليس شغلك.

. طيب.. سأعثر على نبوت جامد أطارذك به الآن حتى باب بيتك لتجرى فلا تبص خلفك.  
رجل عجوز.. وتجن؟ ألا تستحي؟

. إني أخاطبها هي.. ولا أضايق أحداً..

. مع من تتحدث .إنها لم تعد موجودة، وليس هناك من تتحدث معه.. ماتت وواريناها  
التراب.

. بل إنها تتكلم معي.. وقد سمعت صوتها . أخذ نيشاي يعاند

. لا داعى لتعطيلنا.. ما الذى دفعكم إلى الحضور إلى هنا والتصنت علينا؟

. طيب فلنذهب..

قال جدى وهو يرفع العجوز من على الأرض، وأردف:

. لئمش إلى بيتى، عندى هناك زجاجة فودكا منزلية، سنشرب وتخف عنك همومك..

لم يمانع الجد نيتشاي فى السير معنا. قال يكلم جدى:

. ما أصعب وضعى أيها العراب. لم تعد بى قوة.

ثم مضى بعد ذلك أمامنا وهو يتخبط فى مشيته ويجفف دمه بأكمام قميصه طول الوقت. رحى أتابعه ببصرى من الخلف وهو يتحرك أمامى.. ضئيلاً، قصير القامة، قضت عليه الفاجعة. انهمرت دموى أنا الآخر، بكيت بصوت خافت حتى لا يسمعنى جدى ويصفعنى على قفاى. أحسست الشفقة على الجد نيتشاي. كان جدى يهون عليه:

. من حياته سهلة؟ من الذى يهون عليه دفن إنسان حبيب فى التراب؟ فإذا رقد الجميع من المصيبة إلى جواره.. فكيف ستسير الحياة؟ حرق فى.. كم مرة كان لابد أن أموت فيها؟ تحمل. تماسك وتحمل.

. خسارة.

. طبعاً خسارة.. لا يقال إلا ذلك. ولكن ليس فى وسعك الآن مساعدتها بشىء. فقط تعذب نفسك. ومحمل أن تموت. تماسك.

. أجل أعرف ذلك.. لكن قلبى احترق، لا شىء الآن يطفىء نارى. حاولت أن أجرع الخمر، لكن نفسى لا تتقبل شيئاً.

. ستتقبل. لماذا لم يجرىء إبنك بيتيا إليك ليحضر الدفن؟ بالنسبة لابنك الآخر فإن المسافة بينكما طويلة، لكن بيتيا..؟

. مسافر فى مأمورية. يا للشقاء.. أيها العراب.. عمرى ما فكرت أنها ستموت.

. هكذا نحن دائماً.. يعيش الإنسان بيننا ويبدو وكأن هذا هو الوضع الطبيعى ولا بد أن يستمر.. فإن مات نتحسر عليه. أجل.. لكن أن يُجن الإنسان من الكارثة فهذه أيضاً حماقة.

فى هذه الدقائق تبددت منى الليلة الهادئة الصافية، ولم تعد تساورنى أية خيالات، وانقضت تلك السعادة المضيئة، غير المفهومة. وأسدلت أشجان هذا الإنسان النحيف قصير القامة ستاراً على العالم الجميل. أذكر فقط أن نباتات الشيخ كانت كما من قبل تذيب فى الجو رائحتها الحادة والمررة.

استضاف جدى العجوز نيتشاي لبييت عندنا. هناك رقدا على الأرض متجاورين، وتغطيا بمعطف من فرو الخرفان.

قال له جدى:

. سأحكى لك حادثة واحدة..

وبصوت هادىء أخذ جدى يقص:

. أنت لم تحارب يا نيتشاي ولا تعرف ما جرى.. كانت الحالة حينذاك أفظع بما لا يقاس يا أختى، اسمع هذه القصة. كنت أخدم فى الجيش ممرضاً أقوم بنقل الجرحى إلى المؤخرة، وذات يوم.. كانت عربتنا الضخمة "ستوديو بيكر" تنهب الأرض، مكتظة بالجرحى الذين تصاعدت أصواتهم بأناتهم وهم يرجون السائق أن يسير ببطء. وكان السائق نيكولاي إيجرينيف من نفس عمرى. حاول أن يقود السيارة بسرعة مناسبة ومعقولة، ذلك أن المبالغة فى التمهل كانت مستحيلة، لأن قواتنا كانت تتسحب وقتها ونحن معها. المهم أننا مضينا نقرب من مفارق طرق، ورأينا على بعد أماننا، عربة صغيرة واقفة وإلى جوارها ضابط يلوح بيديه وهو يصيح:

. قف.. أقول لك قف..

وكان قد صدر لنا أمر صارم: لا تتوقفوا، ولو طلب ذلك الشيطان ذو القرنين شخصياً. كانوا على حق.. ما يزال كثير من الأحياء يرددون هناك.. قل لو كان جيشنا فى حالة هجوم لهان الأمر.. أما ونحن ننسحب؟ المهم مررنا قرب العربة الصغيرة مواصلين طريقنا. لكن العربة الصغيرة انطلقت تلاحقنا حتى تقدمتنا، وخرج منها الضابط ووقف فى منتصف الطريق ومسدسه فى يده. لم يكن بوسعنا أن نقوم بشيء، فتوقفنا. اتضح أن ثمة ضابطاً جريحاً يجلس فى العربة الصغيرة، وأرادوا أن ينقلوه لإسعافه ولم يكن فى استطاعة الضابط صاحب المسدس أن يوصله هو، لأن عليه أن يسلك الطريق المعاكسة. استطعنا بطريقة ما أن نحشر الجريح فى جوف عربتنا المكتظ بمعاونة الضابط الآخر. فى ذلك الوقت كان نيكولاي السائق يجلس فى كابينة القيادة إلى جوار نقيب جريح جلس شبه راقد، وكان نيكولاي المسكين يمسك بعجلة القيادة بيد، ويسند النقيب الجريح بالأخرى. أما الشخص الذى ساعدناه على صعود سيارتنا، فكان مسكيناً، وكان من الواضح أنه لم تبق أمامه إلا ساعات معدودة يقضيها فى هذه الدنيا. كان رأسه غارقاً فى دم جاف. شاب صغير، برتبة ملازم. لعله بدأ يطلق ذقنه من زمن بسيط. حملت رأسه، ووضعته على ركبتى، قلت لعلنى بذلك أساعده.. لكن تساعد من؟

وصلنا إلى المستشفى العسكرى، وهناك شرعنا فى إخراج الجرحى من السيارة..

سعل جدى، وصمت. أشعل سيجارة وواصل:

- جعل نيكولاي يساعدى فى إخراج الجرحى، ناولته الملازم، وقلت له: " هذا الشاب

انتهى.. خلاص" فتطلع نيكولاي إلى وجه الملازم.. هيه..

أطبق الصمت مرة أخرى. سكتنا طويلاً.

سأل نيتشاي بصوت خافت:

. ترى أكان الملازم هو ابن نيكولاي حقاً؟

أجاب جدى:

. نعم ابنه.

. يا إلهى!

. هووف..

تمخط جدى، وأخذ يسحب أنفاساً من سيجارته عدة مرات متعاقبة.

. وماذا حدث بعد ذلك؟

. دفناه.. وأعطى رئيس الكتبية إجازة أسبوع لنيكولاي الذى سافر إلى قريته. هناك.. لم يخبر زوجته أن ابنها مات. أكثر من هذا أخفى نيكولاي كل الوثائق التى تخص ابنه حتى الوسام الذى منحوه له، ومكث فى القرية أسبوعاً ثم رحل.

. ولماذا لم يخبرها؟

. يخبرها؟! هكذا على الأقل سيظل لديها أمل.. أما لو قال لها لانتهى بذلك كل شىء. لم يستطع أن يقول لها. عدة مرات شاء أن يكلمها. ولكنه لم يستطع.

تنهد نيتشاي مرة أخرى:

. يا إلهى.. يا إلهى.. وهل ظل نيكولاي على قيد الحياة؟

- نيكولاي؟ لا أعرف.. فرقنا الحرب، ووزعتنا فى أماكن مختلفة.. هذه هى القصة. ابن الإنسان! هل هذا هين؟ وخاصة إذا كان شاباً صغيراً؟!

لزم العجوزان الصمت.

كان ضوء القمر المهيب، الساكن، ينسكب، وينسكب فى الشبايبك. كان القمر منيراً! وسيان أفرحة كانت على الأرض أم فاجعة.. يظل القمر مضيئاً.

## هواجس

هكذا كل ليلة.. لا تكاد القرية تهدأ قليلاً ويتأهب الناس للنعاس حتى يشرع هذا اللعين فى الحركة، يقبل من أطراف القرية يدنو، ويدنو وهو يعزف على أوكورديون من نوع خاص، لا يصدح، لكن يولول.

وقد نصحوا نينا كريتشينوفا:

. تروجى منه بسرعة. يا للشيطان.. إنه لا يدعنا نحيا فى هدوء!

وابتسمت نينا بسمه ملغزة:

. ناموا ولا تنصتوا إليه.

- عن أى نوم تتحدثين وهو يمتط الأوكورديون تحت الشبايك مباشرة؟ وبأ ليت شيطانك العاشق كان يذهب إلى ناحية النهر، لكنه لا يفعل.. وإنما يتفنن هنا.. كأنما يتعمد ذلك.

أما كولكا مالاشكين، الضخم، غليظ الشفتين، فقد قال ونظرة وقحة تطل من عينيه الصغيرتين:

. هذا حقى، ليس فى القانون بند يعاقب على العزف.

فى هذا المكان بالتحديد، حيث خرج كولكا من الزقاق منعطفاً إلى الشارع، قام البيت الذى يسكن فيه ماتفى رزانتسيف، رئيس المزرعة التعاونية فى القرية.

وهكذا، كان يرتفع عويل الأوكورديون فى الزقاق ويمضى فيلتف حول البيت ويظل مسموعاً فترة طويلة.

وقد اعتاد ماتفى . بمجرد أن يرن الأوكورديون فى الزقاق . أن يجلس على سريره ويمد ساقيه

إلى الأرض قائلاً:

. بس. غداً سأرفته من الكلخوز، سأتمحك فى أى سبب وأرفته.  
كان ماتقى يكرر هذه الكلمات كل ليلة، لكنه لم يرفث كولكا أبداً. فقط كان يسأله إذا التقى به فى  
النهار:

- هل ستظل طويلاً تتسكع بالليل؟ الناس يلتسمون الراحة بعد عمل طوال النهار، لكنك  
توقظهم كأنك قارع ناقوس فى كنيسة؟  
ويرد كولكا كعادته:

. هذا حقى!

. طيب.. سأريك حقا هذا.. سأجده لك.

عند هذا الحد كان الحوار ينتهى بينهما. ويعود ماتقى ليقسم كل ليلة وهو جالس على  
سريره: "غداً سأرفته". ويجلس مدة سارحاً مع أفكاره. وحتى بعد أن يغيب صوت الأوكورديون  
بعيداً فى الشارع ويصبح غير مسموع يظل ماتقى جالساً فترة، ثم يمد يده إلى جيب سرواله  
الملقى على الكرسي، يتحسس حتى يعثر على علبة سجائره فيخرجها ويشعل لنفسه سيجارة.  
وتتمتم آينا زوجته متذمرة: "كفاك هذا القطران"، فيرد عليها باقتضاب: "نامى..". وتسرح أفكاره..  
فتترأى له صور غائمة متناثرة من حياته لا يربطها شىء.

وذاذ ليلة من تلك الليالى التى أضاءها القمر، رن صوت الأوكورديون، وانسكبت عبر  
النافذة المفتوحة مع النسيم العليل رائحة نبات الشيح المرة المنبعثة من البستان. وتجدت أمام  
ماتقى بوضوح ذكرى ليلة سوداء من حياته الماضية..

يذكر كان مع أخيه الأصغر "كوزما" بصحبة والدهما، وتوجهوا معاً لجمع المحصول بعيداً  
عن قريتهم بخمسة عشر كيلو متراً. فى تلك الليلة تحشرج صوت كوزما أول الأمر، فقد عب من  
مياه النبع الباردة بالنهار فى عز الحر وكان العرق يغطيه. وعند حلول الليل انسدت حنجرته  
تماماً. يتذكر ماتقى أن أباه أيقظه وطلب منه أن يقفش أسرع الخيول المسمى "إيجرنكو"، ويدفعه  
للانطلاق بأقصى سرعة على الطريق إلى قريتهم لي جلب كمية من اللبن لأخيه الأصغر.

قال له أبوه:

- سأضرم النار فى الحطب حتى تعود باللبن فنغليه. لا بد أن نسقى أخاك لبناً ساخناً وإلا  
مات بين أيدينا.

انطلق ماتقى، وجعل يرهف السمع حتى خمن المكان الذى يرمى فيه الحصان، وهناك  
تمكن من تلجيمه ثم انهال على جانبيه بسوط من شعر مجدول يستحثه على بلوغ القرية بأقصى  
سرعة.



حينذاك لم يكن ماتقى قد تجاوز الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة، وعلى الرغم من أنه سيبلغ الستين عما قريب، فإن تلك الليلة مازالت حية فى ذاكرته.

اندغم ماتقى فى الحصان وصارا كتلة واحدة طائرة فى ليل أسود اندفع نحوهما، وراحت رائحة كثيفة من الأعشاب الرطبة تضرب وجهيهما بشدة. واندفع الدم يطن فى رأس ماتقى، واستولت عليه نشوة وحشية.. ما أقرب ذلك إلى التحليق! وشعر الصبى كأنه انفصل عن الأرض، وعلا طائراً، لا يرى شيئاً من حوله.. فلا أرض.. ولا سماء.. ولا حتى رأس الحصان، كان الطنين يدوى ملء أذنيه، وقد تزحج راكضاً للقائه عالم الليل المهول. ولم يرد إلى عقله إطلاقاً فى تلك اللحظة أن أخاه كوزما يرقد مريضاً هناك، بل وما عنت له أية فكرة أخرى. لقد انتقدت الفرحة العارمة فى روحه وانتفض كل عصب مبتهجاً فى جسده.. يا له من ومض عزيز لشعور لا يتكرر وسعادة فوق الاحتمال.

بعد ذلك حلت الكارثة، حين عاد باللبن إلى أبيه، فوجده يهرول حول شعلة النار وقد ضم أخاه إلى صدره وهو يتمتم مهدداً: "يا ابنى.. ما بك؟ تحمل قليلاً، شوية بس، سنغلى لك اللبن فتتنفس، يا ابنى يا حبيبي.. ها هو ماتقى قد جاء باللبن".. لكن كوزما الصغير كان أزرق، مختنقاً. وبعد وصول ماتقى بقليل جاءت أمه، لكن كوزما كان قد مات.

جلس أبوه جاعلاً رأسه بين يديه، مطوحاً نصفه الأعلى وهو يئن بصوت خافت مديد.

وحطت على ماتقى دهشة وفضول وهو يتقرس مستغرباً فى أخيه الذى كان حتى الأمس فقط يلعب معه فوق الدريس.. إنه يرقد الآن أمامه جسداً غريباً لا يكاد يتعرف إليه. جسد أبيض تشوبه الزرقة.

لكن.. كيف بعث الأوكورديون اللعين فى ذاكرته تلك الليلة، وكل ما جرى فيها؟ ما أعجب هذا.. ألم تمتد بعد ذلك الحادث حياة طويلة حافلة؟ عرس الزواج، تعميم المزارع التعاونية فى الريف، الحرب، وغير ذلك من الليالى التى لا تنسى؟ كل هذا يبدو وكأنه بهت، وامحى من الذاكرة.

طوال حياته تلك نهض ماتقى بأعبائه التى كان عليه أن ينهض بها، حين قالوا له لا بد من الذهاب والعمل فى المزرعة التعاونية، ذهب. وحين حانت السن التى يتزوج فيها الناس عادة، تزوج من "آليوننا" وأنجبت له الأطفال الذين كبروا. وحين وقعت الحرب، مضى ليحارب. وحين رجع إلى قريته بسبب جراحه قبل عودة الجنود الآخرين، قالوا له: "ماتقى.. كن رئيس المزرعة.. ليس هناك سواك"، فأصبح رئيس المزرعة، ومثلما انخرط فى عمله معتاداً عليه، ألف الناس وجوده. منذ ذلك اليوم وهو يشتغل بهذا العمل الرتيب، العمل، العمل، لم يكثر طيلة حياته إلا به، حتى سنوات الحرب انقضت هى الأخرى فى العمل. وكان العمل محور مشاغله كلها، وأفراده وأحزانه، حتى أنه حين سمع كلمة "الحب" تتردد من حوله، لم يدرك ما هو

المقصود بتلك الكلمة على وجه الدقة. بالطبع كان يعلم أن "الحب" عاطفة موجودة في هذه الدنيا، بل ومن غير المستبعد أن هذا "الحب" هو ما أحسه نحو آيونا زوجته التي كانت جميلة للغاية في شبابها.

لا.. لا يدعى ماتقى أنه يعرف شيئاً . أكثر من ذلك . عن "الحب"، بل إنه يظن أن الآخرين يتظاهرون، لا أكثر، بالحب، فيغنون أغانيه، ويصطنعون الشقاء. الأغرب من ذلك أنهم حسب ما سمع ينتحرون. لعلهم لا يتظاهرون وإنما هي عادة ألفوها أو شيء من هذا القبيل؟ لا بد أن نتكلم عن الحب.. طيب.. فلنتكلم عن هذا، بينما المشكلة الحقيقية أن الناس لا بد أن يتزوجوا. وترى هل كولكا عاشق حقاً؟ لا شك أن نينا تعجبه فهي بنت عفوية ومكتنزة الجسم، لكنه من ناحية أخرى في سن الزواج، ولذلك يتسكع هذا الأحمق ويعزف الأغاني بالليل. ولم لا يذرع الشوارع بالليل؟ أليس شاباً يحس بالقوة تتأجج في روحه؟ هذه حال الدنيا. الحمد لله أنهم لا يتضاربون بالأيدى بسبب البنات. كان الشبان يفعلون ذلك فيما مضى. ماتقى نفسه تشاجر عدة مرات، كان قوياً والرغبة في العراك تسرى في قبضتيه.. طاقة لا بد من تصريفها.

أثقلت على ماتقى خواطره تلك، فأخذ وهو جالس على السرير يهز زوجته النائمة من كتفها:

. آيونا.. أتسمعين؟ استيقظي.. أريد أن أسألك سؤالاً..

اندهشت آيونا:

. ما بك؟

. هل وقعت يوماً في الحب؟ حبي أو حب رجل آخر.. أى رجل؟

ظلت أمارات الدهشة تملو وجه آيونا فترة وهي راقدة، ثم قالت له:

. أنت سكران يا رجل؟ ماذا جرى لك؟

- إنى أسألك، هل شعرت نحوى بالحب فتزوجتني، أم تزوجت لأنه لا بد من الزواج؟ إنى أسألك جاداً!

حينذاك، أدركت آيونا أن زوجها ماتقى ليس مخموراً، وعلى الرغم من ذلك التزمت الصمت مرة أخرى، لأنها لم تدر ماذا تقول له؟ لقد نسيت. صاحت به:

. من أين تسللت إلى رأسك هذه الأفكار؟

. شىء واحد أردت أن أفهمه، لعنة الله عليه، شىء يجثم على قلبى، ويقلقنى، لا أدرى لماذا، كأنه مرض.

قالت آليونا محاولة إقناعه:

. طبعاً أحببتك! لو أنى لم أحبك ما تزوجت منك. ألم يلهث ورائى حينذاك كارلوف؟ لكنى لم أتزوجه. ثم قل لى ما الذى جعلك تتذكر الحب وسط الليل؟ هل بدأت تخرف؟

اغتم ماتقى:

. نامى، الأحسن أن تنامى.. ربنا يأخذك!

. نسيت أن أقول لك.. سرح البقرة لترعى غداً، لأنى اتفقت مع النسوة أن نمشى قبل أن تنور الدنيا لنجمع الثمار.

انتبه ماتقى:

. أين؟

. لا تفرغ، لن نذهب إلى بساتين الحكومة.

. لو ضبطت واحدة منكن هناك سأغرمها عشرة روبلات.

. نحن نعرف مكاناً لم يبدأ فيه الحصاد بعد، والثمار هناك حمراء غاية الاحمرار.. المهم لا تنس أن تسرح البقرة.

. طيب.

ولكن.. ما الذى جرى فى تلك الليلة حين ذهب فى طلب اللبن لأخيه "كوزما"؟ ما الشىء الذى يجعل تلك الليلة تمسك بخناقه وتلح بذكراها عليه؟ لعننى أختبل، فالناس حين يشيخون يخرفون. وحزن ماتقى لذلك خاطر.

ولم يهدأ ألم المرارة التى تخللت روحه. وانتبه ماتقى إلى أنه ينتظر مرور كولكا، ويتقرب سماع آله الشجية، وأنه كلما انقضى الوقت دون مرور كولكا تضاعف قلقه، حتى أنه امتلأ بالحنق على نينا واغتاظ منها "هل من المعقول أن تتركه هذه الفحلة العفية ينصرف بسرعة؟".

ظل جالساً يدخل ينتظر مرور كولكا وصوت الأوكورديون الشجى.

ها هو الصوت يرن من بعيد فى الزقاق، فيتصاعد الألم فى قلب ماتقى، لكنه فى هذه المرة ألم من نوع آخر، عذب وعجيب، يشعر الإنسان بدونه أن شيئاً ينقصه.

وتراءت له من ذكرياته أصباح أيام أخرى: وهو يمشى حافياً على أعشاب ندية يطأها  
بقدميه فتحمل أثرهما، أعشاب خضراء، شديدة الخضرة، يخز باطن قدميه منها برد الندى، بل إنه  
ما كاد يتذكر ذلك حتى أحس البرد يسرى فيهما.

وخطرت له فكرة الموت فجأة. "قريباً تحل النهاية"، طرأت له الفكرة من دون رعب أو ألم،  
مصحوبة بالدهشة وحدها "سيحملونك إلى القبر، ويوارونك التراب"، هذا واضح ومفهوم. وسيظل  
كل شيء على ما هو عليه؟ هذا هو ما يصعب على الفهم! كيف سيظل كل شيء على ما هو  
عليه؟ طيب نفترض أن الشمس ستظل تشرق وتغرب كل يوم، هذا مفهوم وهي حالها منذ الأبد،  
لكن الناس؟ بشر جدد سيعيشون في القرية، بشر لن تتعرف إليهم أبداً، هل يعقل هذا؟! لا.. إنه  
أمر يستعصى على الفهم. سيظل أهل القرية يتذكرونك عشرة أعوام، قل خمسة عشر عاماً،  
يتذكرونك ويرددون أن رجلاً اسمه ماتفى كان يعيش هنا، ثم ماذا؟ سيحل يوم تنفض فيه هذه  
السيرة. كم وددت لو أعرف أى إنسان سيظهرون ويعيشون هنا. لا.. ليس هناك ما أتأسف عليه،  
شبعْتُ من التطلع إلى الشمس بما فيه الكفاية، وتتزهت في الأعياد في حدود المعقول، بل  
وعشت بعض الأوقات المفرحة. لا.. ليس هناك ما أتأسف عليه، لقد رأيتُ الكثير في هذه الدنيا،  
لكن ما أكاد أفكر في أنى لن أصبح موجوداً، وأن آخرين سيواصلون الحياة بينما أكف أنا عن  
الوجود؟ ترى.. هل سيحسون بالفراغ من بعدى؟ أم ستمشى الحال؟ تفو! لا بد أننى أخرف. لقد  
تعبت من هذه الأفكار والهواجس.

أيقظ زوجته:

. آليونا.. أسمعين؟ آليونا.. أفيقى يا امرأة. هل تخافين الموت؟

صاحت متذمرة:

. هل جننت يا رجل؟ من الذى لا يهاب الموت حصّاد البشر؟

. أنا. أنا لا أخشى الموت.

. نم إذن. لماذا تفكر في الموت؟ نم إذن ودعنى أسترح.

عاودته مرة أخرى ذكرى تلك الليلة السوداء الصماء، وهو طائر على الحصان فشعر بالقلق  
والعذوبة يعتصران قلبه. لا.. مع ذلك ثمة شيء في هذه الحياة، شيء يأسف الإنسان عليه، بلا  
حدود، وحتى البكاء.

\*\*\*

فى ليلة أخرى، نفذ صبر ماتقى بعد طول انتظار أوكورديون كولكا. جلس وشرع يدخن. ومن جديد طال انتظاره وترقبه دون أن يرن صوت الأوكورديون الشجى. ولم يطق ماتقى ذلك الانتظار الممض وتكدر مزاجه إلى أقصى درجة. وحين انتشر نور الفجر أيقظ ماتقى زوجته وسألها:

. ماذا جرى لقارع النواقيس؟ لا حس ولا صوت؟

. كولكا؟ لقد بدأ اجراءات الزواج.. والعرس يوم الأحد القادم.

غمرت الكآبة ماتقى. ورقد معتزماً النوم، لكنه لم يتمكن. ظل يطرف بعينيه فى السرير حتى فاض الضوء فى الحجرة. ود لو يتذكر شيئاً من حياته، لكن شيئاً لم يرد إلى عقله على الإطلاق، بل انثالت إليه مشاغل المزرعة التعاونية: يقترب موسم الحصاد فى حين أن نصف آلات الحصاد والأجزاء الملتوية من العربات مركونة على حالها عند الحدّاد الأحول "فيليا"، و "فيليا" لا هم له إلا التنزه.. والآن، وعرس كولكا قادم، فإن الحداد سيعب الخمر طويلاً حتى يرتوى فى ذلك العرس. أى يمكن أن نقول إن أسبوعاً آخر بأكمله سيضيع. لا.. لا بد من الكلام مع "فيليا" بهذا الصدد.

\* \* \*

فى اليوم التالى التقى ماتقى بكولكا غليظ الشفتين، فابتسم ماتقى بسخرية قائلاً له:

. إيه يا أخانا.. هل شبعت من العزف ليلاً؟

انفجرت شفتا كولكا عن بسمة عريضة وصلت ما بين أذنيه وقال:

. خلاص يا ماتقى إيفانوفيتش. لن أوقظك بعد ذلك فى الليل. رسوت بمركبى.

قال ماتقى:

. طيب.. طيب.

وانصرف ماتقى إلى أعماله وهو يقول لنفسه: "ولماذا أنت سعيد هكذا؟ أيها الثور، من الآن فصاعداً ستمسك بك نينا من قرنيك. هكذا هن النسوة".

ومر أسبوع بعد ذلك.

لم يكف ضوء القمر السيال عن الانسكاب فى النوافذ ليلاً، وفاحت بحدّة من البستان رائحة الشيح وأوراق حبات البطاطس النامية.. وعم الهدوء المكان.

نام ماتقى نوماً مضطرباً، ثم صحا وراح يدخن. أخذ يتمشى أمام مدخل البيت. وشرب كوباً من سائل "الكفاس"، ثم جلس على عتبة السلم تحت سقيفة البيت. وشرع مرة أخرى يدخن سيجارة. وكانت القرية منيرة بينما سادها صمت مرعب.

\*\*\*

## غليون الجندى

يظل ضوء النجمة الهادى سارياً ألوف السنين قبل أن يبين للبشر، لكن عمر الإنسان قصير: طفولة ولعب، حب وعمل، مرض ثم موت.

اشتعلت حرب، سيتخيرون لها فى وقت ما صفة "كبرى" أو "صغرى"، حتى يسهل تمييزها بسرعة من الحروب السابقة، والأخرى اللاحقة. أما الذين عاشوا ذلك العام فقد عدوها "حرباً" فحسب.

وقعت الحرب، وقرب أكوام الحجارة، التى كانت مسماة فيما مضى: مدينة ابيرو البلجيكية، انبسطت قطعة أرض صغيرة المساحة، جلس عليها، وأكل، ومات، إناس غرباء وافدون من بعيد، أطلقوا عليهم اسم: "كتيبة خط الطول 118 التابعة للجيش الفرنسى". وكانت تلك الكتيبة مؤلفة من الفلاحين وصناع النبيذ والرعاة فى قرية "بروفانس" بجنوب فرنسا. وطوال ستة أشهر كاملة، أكل أولئك الناس (ذوو الوجوه السمر والشعور المجعدة) فى الحفر الطينية، ناموا فيها، أطلقوا النيران، ماتوا وأيديهم تنتفض إلى أعلى.

وهناك فى هيئة الأركان، رسموا فوق الخارطة، عند مواقع "المعبر الأسود"، علامة تحدد أن كتيبة خط الطول 118 تحمى المواقع هناك.

وعلى بعد خمسمائة خطوة جلس إناس آخرون، تحدثوا بلغات مختلفة، وأطلقوا هم أيضاً النيران، وبدوا أضخم وأشد فظاظة وأميل إلى البياض زرق العيون، وكان السمر ذوو الشعور المجعدة قلة بينهم. هؤلاء كانوا مزارعين من "بوميران" بألمانيا، أطلقت عليهم هيئة الأركان اسم: "كتيبة الاحتياط 87 التابعة للجيش البروسى".

كانت الكتيبتان عدوتين، تفصل بينهما قطعة أرض، قال عنها صناع النبيذ والمزارعون إنها "بلا صاحب"، قطعة أرض لم تكن تابعة للمملكة البلجيكية، ولا للجمهورية الفرنسية، ولا للامبراطورية الألمانية. قطعة أرض أحرقتها القنابل، وأكلتها بالطول وبالعرض الخنادق المهجورة الممتلئة حتى حافتها بعظام البشر والمعادن الصدئة. هكذا، كانت تلك الأرض هالكة، و"بلا صاحب"، لم تسلم فيها عشبة واحدة، فاحت كلها (فى منتصف يولييه) بعطن الدم، والبراز. ومع ذلك، فإن البشر أبداً لم يتقاتلوا للاستيلاء على أى بستان مبارك، نضير الثمار مورق النبات، كما تقاتلوا للاستيلاء على قطعة الأرض الخاوية تلك، والمشتهاة. ففى كل يوم، كان يزحف إنسان ما، من الأراضي الفرنسية أو الألمانية، إلى المكان الذى يقال إنه "بلا صاحب"، يزحف وهو يمزج الطين بخيوط من الدماء.

قال البعض إن فرنسا تخوض الحرب من أجل الحرية، وقال البعض الآخر إنها تسعى لنهب الحديد والفحم. أما "بيير ديبوا"، جندى كتيبة خط الطول 118، فقد حارب لا لشيء، إلا لأن الحرب قد اندلعت. قبل ذلك، اشتغل "بيير ديبوا" بزراعة العنب، وحين كان المطر يسح طوال أيام متتالية، أو تهاجم حشرة "فيلوكشر" الكروم، كان "بيير ديبوا" يقطب وجهه، ويسوط كلبه حتى لا ينوش العنب. وفى السنة الندية، كان يبيع الأعناب بثمن مريح، ويرتدى صدارته المنشاة، ويمضى إلى أقرب بلدة. وهناك يلهو كيفما يمكنه اللهو فى حانة "ملتقى الأمراء": يخبط الجرسونة على ظهرها العريض ويلقى فى ثقب مكنة الموسيقى قطعتى "سو"، ثم يستمع إلى الألحان المنتخبة فاغراً فاه. ولم يمرض "بيير" إلا مرة واحدة، حين ظهر له دمل فى أذنه، وكان موجعاً للغاية. وفى صغره، كان مغرماً بامتطاء ظهر الماعز، وسرقة التين المجفف أينما خبأته أمه. وكانت له زوجة هى "انا"، يضغظ بعشق أغلب الوقت نهديها المتماسكين كعنفودى عنب .

هكذا، مضت حياة "بيير ديبوا"، إلى أن خاضت فرنسا الحرب، دفاعاً عن الحرية، أو لنهب الفحم، فصار "بيير ديبوا" جندياً فى كتيبة خط الطول 118 التابعة للجيش الفرنسى.

فى مواجهة "بيير ديبوا"، وعلى بعد خمسمائة خطوة منه، جلس "بيوتر ديباو". ولم تكن حياة "بيوتر ديباو" تشبه فى شيء حياة "بيير ديبوا"، مثلما لا تشبه البطاطس الأعناب، ومثلما لا يشبه الشمال الجنوب. ولكنها كانت فى نفس الوقت تشابهها من دون حد، مثلما تشبه كل ثمار الأرض بعضها البعض، وكل البلدان، وكل الحيوانات بعضها البعض.

لم يذق "بيوتر" العنب طيلة عمره، كان يرمقه فقط وهو معروض خلف زجاج المحلات. ولم يكن مغرماً بالموسيقى، لكنه كان يشارك الآخرين لعبة السبعة أوتاد فى أيام الأعياد، وكان يتجهم

حينما تحمو الشمس وينعدم المطر، لأن العشب يصفر في ذلك الوقت، وتدر الأبقار لبناً فاسداً. لم تمرض أذناه أبداً، فقط توقع ذات يوم، فرقد أسبوعاً طريح الفراش وهو يعاني من سخونة شديدة. وكان، في صباحه، يلعب مع كلبه الهرم "تاكسا"، ويتصيد بقبعته البقع الشمسية داخل الغرف. وكانت زوجته "يوهانا" بيضاء مثل اللبن، لينة كالبطاطس المسلوقة، وكان مفتوناً بذلك.

عاش "بيوتر" على هذا النحو، إلى أن قال البعض إن ألمانيا بدأت تقاقل في سبيل الحرية، وقال البعض الآخر إنها تريد الاستيلاء على الحديد والفحم، فصار "بيوتر" جندياً في كتيبة الاحتياط 87.

ولم تكن هناك حرية في قطعة الأرض التي "بلا صاحب"، ولم يكن هناك فحم، لم يكن هناك سوى عظام البشر، والأسلاك الصدئة. ولكن الناس أرادوا أن يظفروا بقطعة الأرض تلك، مهما كلفهم ذلك.

وقد أمعنت هيئة الأركان التفكير في ذلك الهدف، وأدرجته في المستندات والوثائق، وقام أحد الضباط، في 24 أبريل 1916، باستدعاء الجندي "بيير ديبوا" إلى مكتبه وهناك أصدر إليه أمراً بالزحف في الثانية بعد منتصف الليل، عبر الخندق المهجور المسمى "ممر العواء" حتى مواقع القوات الألمانية، لكي يستكشف بدقة أماكن تركز القوات المعادية.

لم يتجاوز "بيير ديبوا" الثامنة والعشرين من عمره، وهذا بالطبع عمر قصير للغاية إذا قسناه بنور النجمة الساكن الذي يسرى بضع مئات من السنوات.

أنصت "بيير" إلى أمر الضابط، لكن عقله كان منشغلاً بالتفكير في خاطر آخر: "حشرة فيلوكشر" تبديد الأعصاب، والمرض يفنى الإنسان، والآن.. الحرب. وإذن، لابد من حساب عمر الإنسان بالساعات، لا بالسنوات. وهكذا، مازالت أمامه ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة حتى ميعاد تنفيذ الأمر".

وأسعهف الوقت فحاك زراً كان قد سقط، وكتب لزوجته "أنا" يوصيها برش الكيماويات على الكروم التي لم تنضج، وارتشف بصوت مرتفع قدحاً من القهوة المرة السوداء.

في الثانية بعد منتصف الليل، شرع "بيير" يزحف على الطين الأملس لكي يستولى على الأرض التي "بلا صاحب". واستغرق "بيير" مدة طويلة وهو يمر في الخندق المسمى "ممر العواء"، مرتطماً بعظام البشر والأسلاك الشائكة، حتى بلغ نهاية الممر. هناك، بانث له في الجهة اليمنى، واليسرى، خنادق أخرى، مهجورة وبنيمة مثل بيوت منبوذة.

وتروى "بيير" مفكراً "في أى الاتجاهين يمضى؟ ولكن.. ألا يقود كل من الاتجاهين إلى الموت؟ وقرر أن يلتقط أنفاسه. وهكذا، أشعل غليونه، غليون جنود الجيش، المتواضع، المتسخ من الطين.



كان الجو هادئاً تماماً. عادة يطلق الجنود بالنهار النيران مدوية، أما فى الليل فيقتلون بعضهم البعض من غير ضوضاء، حين ترسل القيادة المستكشفين من أمثال "بيير" فى مهمة ما، أو تنصب الكمائن المموهة.

ابتلع "بيير" دخان غليونه، وتطلع إلى السماء التى رصعتها النجوم بكثافة. لم يزن "بيير"، لا ولم يخمن، ولم يقارن هذا الكون الواسع بقريته الصغيرة "بروفانس"، لكنه فقط قال لنفسه: "لو يكون الآن ليل مثل هذا هناك فى الجنوب، فيفيد العنب، ويبهج قلب "أنا" فهى تعشق الليالى الدافئة.

كان يدخن راقداً، منتشياً بكل الدفء السارى فى جسمه، وبأنه مازال حياً فوق هذه الأرض الماحلة التى "بلا صاحب"، يدخن ويتنفس، بل وفى وسعه أن يهز يده أو يحرك ساقه.

ولم يكد "بيير" يشعل غليونه من جديد، حتى لاح قبالته وجه إنسان ما من خلف الزاوية هناك. شخص يزحف نحوه. شخص كل ما فيه غريب: وجهه وخوذته وأزرار معطفه. ذلك كان "بيوتر ديباو"، مجرد عدو لـ "بيير"، مثلما أن الحرب مجرد حرب.

ولم يكن "بيير" يدرى أن ضابطاً ألمانياً، قام فى نفس المساء، باستدعاء "بيوتر"، الذى رفاً هو الآخر معطفه، وكتب لـ "يوهانا" خطاباً يذكرها فيه بالاهتمام بالبقار العشروات، ثم احتسى الشورية وهو يتمطق. لم يكن "بيير" يعرف بكل ذلك، وسواء أعرف أم لا، وسواء أفهم أم لم يفهم، فقد اعتبر "بيير" أن "بيوتر" عدوه، هذا لأن الحرب قد نشبت هذه السنة لا أكثر، لذا قوّس جسمه وتهبأ للوثوب والاشتباك حين أبصره يزحف فى اتجاهه.

أيضاً، مد "بيوتر" يديه الاثنتين، وجمع ساقيه، وقدر أكبر قفزة يمكنه القيام بها، عندما شاهد عدوه قريباً منه إلى درجة أنه سمع دقات القلب الآخر.. الغريب.

رقداً، كل فى مواجهة الآخر.

وتريث كل منهما، لم يشأ لا هذا، ولا ذاك أن يكون البادئ بالقتال. وكانت يدا كل منهما على مرمى بصر الآخر. لم يتطلع أحد منهما إلى وجه الآخر "عدوه" لكن كلا منهما حملق إلى اليدين العدوتين.

ظل غليون "بيير" مشتعلًا.

رقد العدوان قريبين من بعضهما البعض، زاهدين فى القتل، مدركين، على الرغم من ذلك، أن الاقتتال حتمى. استلقيا بهدوء، وتنفس كل منهما فى وجه الآخر بصوت مسموع، وتشم كل منهما كوحشين رائحة وبرة أخيه: الغربية، الأليفة والحميمة، رائحة المعطف المبلل والعرق الإنسانى، الطين والشورية. قدما من أراض بعيدة إلى أراض غريبة، "بلا صاحب" وقد أدركا أنه

"لا بد من قتل العدو". لم يحاولوا أن يتكلموا معاً، فما أكثر البلدان الغربية، وما أكثر اللغات الغربية، فقط تمددا متجاورين في سكون، وقد تصاعد بينهما دخان الغليون.

وقدر "بيوتر" أن أية حركة يقوم بها بيديه للتوصل إلى غليونه، تنطوى على خطورة، لذلك اكتفى باستنشاق الدخان المتصاعد بنهم. حينذاك مد "بيير" رقبته ليدنو من رأس "بيوتر"، فتناول "بيوتر" بأسنانه الغليون من فم "بيير"، وعلى الرغم من ذلك فإن الأعين الأربع، لم تفلت من مجال رؤيتها، الأيادي الأربع الغربية.

بعد أن سحب "بيوتر" عدة أنفاس من الغليون، أعاده إلى "بيير"، فشد منه نفساً ثم قدمه مرة ثانية إلى عدوه دون طلب منه. تبادلوا الغليون عدة مرات، ودخناً باستمتاع. العدوان اللذان رقدا فوق قطعة أرض "بلا صاحب" ويجب الاستيلاء عليها مهما تكلف ذلك. وكانا يبتلعان الدخان على مهل، وبحذر.. ببطء شديد للغاية. وبينما يسرى النور الهادىء ألوف السنين، كان هذا الغليون بالنسبة لواحد منهما آخر غليون يدخنه، وقد أدرك الاثنان ذلك. ووقعت الكارثة حين كفت النار عن التواصل في الغليون فانطفأ، لأن واحداً منهما استغرق في خاطر من خواطره فلم يطل بأنفاسه في اللحظة المناسبة عمر الغليون القصير. أهو "بيير" وهو يتذكر "أنا" السمرء؟ أم أنه كان "بيوتر" وهو يودع في خياله "يوهانا" البيضاء؟ واحد منهما على أية حال. وأدركا على الفور استحالة المخاطرة بإخراج القداحة، فأقل حركة باليدين تعنى التطاحن حتى الموت. وعلى الرغم من ذلك، قرر أحدهما أن يجازف.. وكان هو البادىء. أهو "بيير" الذى كان يدافع عن الجمهورية الفرنسية محتفظاً بقداحة ذات فتيل في جيبه الخلفى؟ أم "بيوتر" الذى احتفظ بعلبة ثقاب وهو يدافع عن الامبراطورية الألمانية؟ واحد منهما على أية حال...

وأخذ كل منهما بخناق الآخر، وهوى الغليون غارقاً في الوحل. قام كل منهما بخنق وضرب الآخر، فى صمت، وهما يتمرغان على الأرض. وأخيراً، أصابهما الهدوء، ورقدا فى وداعة متجاورين، لكن من دون الغليون. رقدا ميتين على أرض ماحلة "بلا صاحب".

وسرعان ما تلاشت الأضواء الهادئة التى كانت النجوم ترسلها إلى الأرض، وشع نور الفجر، وكما يحدث كل يوم، ما أن شاهد الناس .الذين يقتتلون من غير ضوضاء ليلاً . أشعة الشمس، حتى أخذوا يقتتلون بصوت عال، مطلقين نيران المدافع والبنادق.

ووصلت إلى هيئتي الأركان مذكرتان، تحويان اسمى جنديين مفقودين. وكان الاسمان متشابهين إلى أقصى درجة، ومختلفين إلى أقصى درجة. وتسلل، بليل نفس اليوم، إلى الأرض التى "بلا صاحب"، إناس آخرون، ليقوموا بما لم يستطع "بيير"، و"بيوتر" القيام به، تسللوا لا لشيء إلا لأن الحرب نشبت فى ذلك العام.

بكت "أنا" السمراء "بيير" وهى ترش العنب الذى لم ينضج فى قرية "بروفانس"، بكت طويلاً، وفى هذا الوقت، أدخلت إلى بيتها زوجاً آخر هو "بوليا"، هذا لأن شخصاً ما لابد أن يشذب الكروم، وأن يضغط نهديها المتماسكين كعنقودى عنب.

وبعيداً، فى قرية "يوميران"، بعيداً جداً عن "أنا"، ولكن أقرب بكثير مما بين نجمة وأخرى، هناك بكت "يوهانا" البيضاء وهى تضع الطعام أمام البقار العشروات، ولأن البقر يحتاج لرعاية دائمة، ولأن جسمها الأبيض كالحليب لم يكن ليستطيع الحياة بلا حنان، ظهر زوج جديد فى المزرعة هو "باول".

فى أبريل 1917، كفت الأرض التى "بلا صاحب"، باعثة العطن من الدم والبراز، عن أن تكون "بلا صاحب". حدث ذلك فى يوم دافىء، مشمس، حين مات فوقها بشر بلا عدد، من مختلف البلدان، وحينذاك صارت التربة الصفراء المشبعة بالدم بالقانون ملكية خاصة لـ "صاحب" ما. ومشى الناس للمرة الأولى على أرض الخندق المسمى "ممر العواء"، مشوا هادئين، دون أن يحنوا رؤوسهم. وفى نهاية الممر، عند المنحنى، حيث تتفرع خنادق أخرى يميناً ويساراً، شاهدوا هيكليين متعانقين، وجليون صغير بالقرب منهما على الأرض.

ها هو أمام عيني، ذلك الغليون المتواضع وقد تلوث بالطين والدم، الغليون الذى صار زمن الحرب "غليون السلام"، مازالت فيه بقية من رماد رصاصى: أثر من حياتين اشتعلتا أسرع مما تشتعل نفثة من تبغ.

\*\*\*

## لقاء عابر

فى أواخر الخريف كنت أمضى بسيارتي فى منطقة "فيليكيا - لوكسكى" و"بسكوفسكى". تفرجت على عديد من القرى الصغيرة الناهضة وسط الغابات، إلا أن قرية عقلت بذاكرتى على نحو خاص، إذ كان لها اسم احتفالى هو: "الأجراس".

كانت تلك القرية تقع فوق رابية عالية، وتطل على بحيرة ساجية تبدو عميقة للغاية. راحت السماء تتطفئ بينما يقترب المساء، وأخذت نوافذ البيوت تعكس الغروب الأصفر الفاتر.

بلغت . مساء نفس اليوم . بلدة رحيبة هادئة هي "ابتشكا"، فى منتصفها كان يهدر فواراً "النهر الكبير". نزلت فى فندق "ابتشكا"، وفيه ساقنى الحظ إلى لقاء عابر وشيق. كان واضحاً أن عملية ترميم للفندق قد انتهت لتوها، ذلك أن كل شيء، حتى المصابيح الكهربائية المدلاة من الأسقف، كان ملطخاً ببقع الجير الأبيض.

عند مدخل الفندق . بعد ساعة من وصولى . التقيت برجل أشيب الرأس، قصير القامة يرتدى معطفاً رثاً، اتضح أنه كان على علم بوصولى، أوقفنى وسألنى:

. متى كانت آخر مرة دخلت فيها قاعة "الكونسرفتوار" الكبيرة؟  
أوقنى سؤاله فى حيرة، بالرغم من ذلك أجبت أنه منذ شهر حضرت فى تلك القاعة حفلة عازفة البيان سفيثا سلافا ريخترا.

قال العجوز:

. أصل المسألة أنى حاصل على شهادتى من "كونسرفتوار" موسكو . قسم التأليف . لذلك أرجوك حين تعود إلى موسكو أن تتحنى نيابة عنى لتلك القاعة الضخمة، ولآلة الأورغن الشهيرة. أنى أرجوك صادقاً أن تفعل هذا.

. هل انقضى زمن طويل منذ أن كنت فى موسكو؟

. سبع سنوات.

رد المؤلف العجوز وسألنى على الفور:

. هل اهتمت بأن تعرف كم "بيانو" وكم "رايال" فى هذه المنطقة "فيليكيا . لوكسكى" أو "الريف" كما يطلقون عليها؟ أتدرى كم عددها فى نوادى "الكلخوزات" والمدن الصغيرة مثل "ابتشكا" المباركة هذه؟  
مرة أخرى ارتبكت وأجبت:

. أنى لم أهتم بذلك.

. هذا هو! شفت.

وأكمل المؤلف بمرارة:

. إن عددها قليل جداً.. إلى درجة فظيعة.

فى هذه اللحظة ولج المدخل رجل يرتدى معطفاً قصيراً مبطناً بالقطن تفوح منه رائحة بنزين نفاذة. ملت إلى الظن بأنه سائق. قال للمؤلف:

. يا والدنا.. فلنمض إلى المطعم نتغذى.. اليوم معى فلوس، فدعنا نذهب ونملاً معدتنا إلى آخرها.

- لا يا عزيزى، أشكرك، لا يمكننى بأية حال، فبعد ساعتين عندى حفلة فى مدرسة، سأعزف "تشايكوفسكى" و "شوستاكوفيتش".

التفت المؤلف نحوى:

- نعم.. سبع سنوات لم أر موسكو! ... قالها بتعجب وأمسك بى من كم معطفى . لكنى جيت الشمال كله فى هذه السنوات، والآن أطوف بأقليم "فيليكيا . لوكسكى" أقيم الحفلات فى المدن والقرى الصغيرة. كان بوسعى أن أعيش فى موسكو، بل وربما حالفى النجاح مثل الكثيرين من زملائى. لكنى إنسان وحيد والقليل يكفينى على حد قول الشاعر "وكسرة من خبزنا وقده الحليب، وللسم من السحاب مئزر قشيب". هكذا كما ترى فضلت أن أتجول فى المدن والأطراف البعيدة أحيى الحفلات، مقابل بضعة قروش، لكن ليس هذا لب الموضوع.. أنت لا تتصور كيف يتوق الناس إلى سماع الموسيقى وخاصة الشباب، ثم أى امتنان يحسونه نحوك بعد ذلك، امتنان يدفعك إلى الاستمرار ولو كلفك هذا أن تدور فى معطف رث. عقب السائق قائلاً:

. الفلوس لا تقى بأجرة الانتقال فما بالك بمعطف؟

رد المؤلف باعتزاز:

. لم يحدث أن أحداً قام بتوصيلى من مكان إلى آخر مقابل فلوس، ثم أنى أعمل كعازف بيانو.. بالرغم من أنى مؤلف، وهذا عدل. استوضحته:

. كيف هذا؟

أجابنى:

- لأن جوهر الموضوع هو أن تحدد لنفسك بشكل سليم، ما هو أرقى وأروع ما يمكنك أن تمنحه للناس.. هل تفهم قصدى؟ فرق ضخم بين الأشياء الموسيقية التى أكتبها وأعمال "موتسارت" أو "تشايكوفسكى"، "موسورسكى" أو "شوستاكوفيتش"، لذلك أفضل عزف هذه الأعمال على تأليف مقطوعاتى، وبذلك أزيد من درجة نفعى للناس.

صاح السائق:

. تمام! أنا مثلاً سواق درجة الثالثة، فإذا قدت سيارة من نوع "زيس 110" سأقطع قلبها!

قال المؤلف:

. زاخار إيفانوفيتش.. انتظر.. قل لى.. ما قيمتى أنا كمؤلف؟ قل لى.. أنا لست سوى نغمة بسيطة، نغمة يعوزها اللهب واندفاع المشاعر الجبارة إلى القمم، ثم ما هو المطلوب قبل كل شيء فى زماننا؟ المطلوب تربية المشاعر الإنسانية الجليلة أولاً وقبل كل شيء، لذلك صرت عازف بيانو أجسد الموسيقى الخالدة. يقول أحد الشعراء: "ورق الأشجار حين يجف ثم يهوى من سماء، فهو تبر ساطع أبداً فى الغناء". إنه شعاع خالد، ذلك الشعاع الذهبى الذى يلقى به الفن علينا، إنه يرفع من قدرنا دائماً. هذه هى المسألة يا عزيزى!

صمت المؤلف كأنما يرهف السمع إلى صوت ناء، ثم قال:

. ربما كان كلامى مبهماً وغير واضح.. لكنها العادة السيئة.. أحياناً تحتم على الظروف ألا أكون فقط عازف بيانو، ولكن ضابط بيانو وأسطى لمختلف الأدوات الموسيقية.. منذ أيام حدث ما يلى: فى بلدة قريبة من هنا اسمها "الأجراس" .. نعم.. نعم.. بلدة رائعة تشرف على بحيرة.. المهم.. اتضح أن عندهم "رايال" بيت إحدى معلمات الريف، انتقل إليها عن امرأة عجوز، أما كيف تصادف وجوده عند العجوز، فذلك ما لم يعرفه أحد، والعجيب أنه كان بحالة جيدة، إلا أن ثمانية أصابع منه لم تكن تعزف، وكان على أن أصلحه بنفسى.. الحق أن إصلاحه استغرق وقتاً طويلاً، استطعت فى نهايته أن أجعل صوته سماوياً.. وفيما بعد، قاموا بنقله إلى نادى الكلخوز.. هكذا.. بهذه الطريقة نعمل.

قال السائق للمؤلف:

. لكن يا ليونيد بتروفتش، لو ناقشنا الموضوع من الناحية العملية، سنجد أنك مثل طفل صغير.. كيف تعيش هكذا دون راحة وأنت رجل مسن؟

وعلق المؤلف:

. من الناحية العملية؟ كلا.. لا تحسب المسألة من هذه الناحية.

أردف المؤلف كلماته بإشارة من عينيه نحو المرأة المنوية بالطابق فى الفندق، وكانت ذات عينين جاحظتين قصيرتين، جلست ملوية الشفتين خلف حاجز خشبى تجرى بعض الحسابات مستخدمة الآلة الحاسبة.

اتبع المؤلف إشارة عينيه بقوله:

. تكاثر أمثال هذه المرأة ممن يحسبون الموضوع من نواحيه العملية، تكاثروا مثل الحشرات في الكرب. وأنت أليس من الأفضل لو مضيت معي إلى الحفلة؟

أجاب السائق:

. سأتي دون شك. أنت حتى الآن يا ليونيد بتروفنش لم تقدم حفلة واحدة في "إبتشكا" من دوني.

ودعني المؤلف وخرج.

سألت المرأة المنوية:

. من هو هذا الشخص؟

أجابتنى بخشونة:

. ماذا بك؟ ألا ترى؟ . هزت كتفيها وأضافت . رجل يتسول بالموسيقى، وكل ما يتقنه هو مخالفة قواعد النظام الداخلي، فهو إما يغنى، وإما يصطحب معه صبياً من الحرفيين إلى الغرفة، ويبدأ في تعليمه العزف على الجيتار.. هذا على حين أن نزلاء الفندق عادة من الناس المحترمين الذين يسافرون لقضاء أعمالهم، أما هو فلا بد من طرده بسبب أفعاله تلك.

عند حلول الليل هبت على "إبتشكا" ريح رمادية معتمة، أخذت تسوق السحب وتجمعها، واندفع المطر في هبات طائفة راشقاً بقطراته القوية زجاج النوافذ، غاسلاً عنها الجير الأبيض.

تمددت العتمة، كثيفة، بحيث لم تستطع أن تترجم تلك المصاييح الساطعة في الشوارع المهجورة إلى خارج حدود القرية، هكذا ظلت العتمة راقدة فوق "إبتشكا" حتى بزوغ الفجر البارد المشبع بالندى.

استيقظت وسط الليل. كانت الريح تعوى وتهز الأشجار العارية خلف الشباك في الشارع. تأرجحت هوجاء على الجدران فوق رأسى ظلال غصن باهتة. استلقيت على السرير وتذكرت المؤلف العجوز. لا بد أنه يحس الوحدة في هذه القرية الغريبة وهذه الليالي اللعينة.

سمعت وقع خطوات خلف باب غرفتي، ثم حشجة الصنبور النحاسي، تحمل . من المغسل إلى الردهة . صوت طرطشة الماء، وصوت إنسان يغتسل وهو يدندن بنصف صوته: "الموج يصرخ في النهير الكسيف.. إبكى وولولى يا عواصف الخريف". وعلى الفور أعقب ذلك صرير السلم شديداً ثم دبب أقدام شخص في الردهة، وتناهى إلى سمعى صوت المرأة المنوية بالطابق نشازاً ومزعجاً: "كف عن هذه الفضائح! أهذا ما توصلت إليه؟ الغناء في أواخر الليالي؟".

وواتتها الإجابة فى وشوشة ذات صفير تحمل تهديداً مصطنع الحزم: "ديدمونة! هل أديت صلاة الليل أم لا؟". وغمغت المرأة من دهشتها بشيء ما عن قواعد النظام الداخلى، ثم انصرفت مهرولة. أما المؤلف . وكننت قد تعرفت إلى صوته . فقد أطلق فى أعقابها ضحكة صبيانية للغاية. وأغرقت بدورى فى الضحك وأنا فى غرفتى. وأدركت أنه ليس بوسع أى شخص من الأجلاف، ولا أية ليالى دون مأوى، أن تعكر صفو القلب الطاهر فى ذلك الرجل المرح.

فى الصباح سافرت من "ابتشكا" قاصداً إلى "بسكوف". وفى طريقى، عرجت على جبال بوشكين حيث قبر الشاعر.

كان المكان . كالعادة فى أواخر الخريف . خالياً يعمه الهدوء. ومن عند الرابية حيث القبر، تراءى لى الأفق الشاحب وقد تعلقت به نهايات الخيوط الذهبية. لم أجد أحداً قرب التمثال الأبيض البسيط الذى تحمل قاعدته اسم "الكسندر سيرجيفيتش بوشكين". فقط بعد مرور ساعة غشى المكان عدة رجال ونساء من العجر، وكننت أرى مخيمهم منصوباً قرب الجبال. أخذوا يفترشون الأرض حول القبر، ثم شرعوا بأصوات منخفضة يتبادلون الرأى حول شيء ما، وبصوت لا يكاد يسمع انخرطوا فى أغنية غجرية مديدة الأنغام وحزينة. امرأة واحدة فقط لم تشارك فى الغناء. كانت شابة، جلست على الأرض وقد اسدلت على كتفيها شالاً جميلاً من الحرير، وأخذت تعبت بأوراق الشجر الملقاة، وسرعان ما انتفض رأسها إلى أعلى وسحبت من بين شعرها الفاحم، زهرة حمراء من الورق المقوى، ورمتها بين قدمى بوشكين، وافتت ثغرها عن بسمة كشفت أسنانها المتلألئة.

اتصلت الأغنية تتثال بجرس هادىء ومكتوم، وومضت فى رأسى صورة المؤلف العجوز فى "ابتشكا"، وأنارت فجأة فى وعيى، صلة ما، مبهمة، بين هذه الأنغام المديدة ودقات البيانو فى أبعد الأماكن، وفى أقصى زوايا الوطن، فى القرى مثل قرية "الأجراس"، و "جارياتشى ستان"، و "كامنى جريفى".

صار العجر ينهضون ويهبطون فى الريح على الدرج الحجرى النازل من عند رابية القبر إلى تحت، وكانت العجربة الشابة آخر من ذهب. ظلت واقفة أمام القبر ثم التفتت نحوى قائلة بصوت أبح:

- كنت أود يا عزيزى لو غنيت لك "دثرينى بالشال الأسود" لكنى لا أستطيع.. حنجرتى تعذبنى بشدة .

قالتها واستدارت بنعومة ومنصرفه فى أعقاب العجر.

بقيت مكانى .



هكذا سرعان ما امحى يومى كبسمة عابرة داغماً كل ألوان الخريف فى لون واحد رمادى  
جهم دبب فيه هواجس الثلج واعتام الأستية وأشجار البتولا بلونها الفضى وهو يسود، وضباب  
مديد.  
لسبب ما خطرت ببالى كلمات المؤلف العجوز حين حدثنى عن الشعاع الذهبى الذى يلقيه الفن  
علينا.

\*\*\*

## مساهمة مشكورة

فى موسكو، لنقل فى شارع "مالتشانوفسكى" تعيش فنانة "مسارح الامبراطورية" فيما مضى،  
تعيش وحيدة وقد تجاوزت سن الشباب، معروفة، عظم وجنتيها عريض، وتقوم بتدريس فن الغناء  
للراغبين. واليكم ما يحدث معها فى شهر ديسمبر من كل عام:  
فى أحد أيام الآحاد، ولنفترض أنه صباح جليدى مشمس، يرن جرس شقتها فى الصالة.  
تصرخ الفنانة من غرفة نومها بفرع فى الطاهية:  
. أنيوشكا.. الجرس يدق.

تهرول الطاهية لتفتح الباب، ثم تتراجع إلى الخلف قليلاً: إلى هذه الدرجة كان الضيوف  
متأنقين وباهرين، أنستان ارتدت كل منهما معطفاً من الفراء وقفازاً أبيض، يرافقهما طالب غندور  
تجمد من البرد فى معطفه الخفيف وحذاءه الرقيق.

يدخل الزوار وينتظرون طويلاً فى غرفة الضيوف الباردة التى أضاءها نور الشمس  
الكهرمانى اللون عبر النافذة المزخرفة بالجليد. بعد ذلك يسمعون صوت الخطوات الحثيثة لربة  
البيت، فيقفون باستعجال تاهياً للقائها. وتدخل الفنانة، منفعلة للغاية، وقد غطت وجهها بالبودرة  
الكثيفة، وعطرت يديها الضخمتين العظمتين، تدخل بسرعة وهى تحاول التحكم فى تلاحق  
نفضات قلبها، فهى تعرف الموضوع سلفاً، وتقول ببسمة ساحرة ويتبسط كبار القوم:

. أستحلفكم بحق الله أن تعذرونى أيها السادة، يبدو أنى تركتكم تنتظرون؟

وانحنى الطالب مقبلاً يدها، وهو يقاطعها باحترام بالغ:

. بل نحن الذين نرجو أن تعذرنا عن الازعاج. حضرنا إليك لطلب هام وملح، موفدين من لجنة تنظيم الحفل الأدبي الموسيقى السنوى لصالح احتياجات تلاميذ المدرسة رقم (5) الموسكوية الثانوية. لقد منحنا اللجنة شرف أن نرجوك أن تساهمى مشكورة فى هذا الحفل الذى سيقام ثالث أيام أعياد الميلاد.

ونفتتح حديثها بصورة رائعة:

. أيها السادة، لو كان من المستطاع أن تعفونى.. المسألة أن..

لكن الأنستين تنقضان عليها بمودة وحرارة بالغتين، بتملق، بحيث أنها لا تتمكن من استكمال محاولة الامتاع والاعتذار الضعيفة هذه.

بعد ذلك، تمر ثلاثة أسابيع بأكملها.

وثلاثة أسابيع بأكملها تعمل مدينة موسكو وتناجر وتمرح، إلا أنها فى زحمة مشاغها المتعددة، ومصالحها، ومباهجها، تعيش فى غورها على شىء واحد هو ارتقاب حفل يوم 72 ديسمبر الشهير.

كثرة هائلة من الإعلانات، بجميع الألوان والمقاسات، زينت جدران كل الشوارع والتقاطعات: "فى الحضيض"، "الطائر الأزرق"، "الأخوات الثلاث"، شاليابين فى "الحورية"، سبينوف فى "ابنة الثلج"، شوركيرين فى "زيمين" أمسية مع "ايجور سيفيريانين"... ولكن لا يخز نظر الناس الآن سوى ذلك الإعلان الصغير، المطبوع عليه بأحرف ضخمة اسم ولقب الفنانة التى تساهم مشكورة فى الحفل الأدبي الموسيقى لصالح احتياجات تلاميذ المدرسة رقم (5) الموسكوية الثانوية.

فى هذا الوقت، تقبع الفنانة فى بيتها، لا تغادره. تعمل من دون يأس كى لا تخيب آمال موسكو، تختار بدون نهاية ما سوف تغنيه، تجرب صوتها من الصباح حتى المساء، تحفظ أغنية ثم تبدلها بأخرى. وتمر الأيام بسرعة غير طبيعية فى هذه الفترة، سرعة تدفع الفنانة إلى الرعب: "لا يكاد المرء يلتفت برأسه حتى يحل هذا اليوم المفزع.. السابع والعشرون من ديسمبر". أوقفت دروس الغناء، لم تعد تستقبل أحداً، وأصبحت لا تخرج من البيت خوفاً من نزلة برد أو زكام.

"ماذا أقدم بالضبط؟". إن الجمهور لا يتصور صعوبة الإجابة على هذا السؤال حتى بالنسبة لأكثر الفنانين خبرة. فلا بد لذلك من تألق الحاسة الفنية القوية، وقدرة لا تحد من الذوق والدرية والحداقة. بعد طول الشكوك المعذبة، تكف الفنانة عن التردد، وتسنقر برأيها على برنامجها الفنى القديم، الذى لا يتبدل، ومرة أخرى تتوالى الأغنيات الثلاث: "الأولى: فرنسية حزينة رقيقة، ساحرة كأغاني المهدي، تكمن فيها على الرغم من ذلك، حرقه هائلة، قوة وألم روح الأنثى العاشقة المتعطشة للسعادة حتى الجنون، ولكنها تضحى بكل شىء وتحرم نفسها من هذه السعادة.

الأغنية الثانية: مشحونة بالجرأة الروسية، محشوة بالحلى الموسيقية المتلائة. ثم تأتي الثالثة قمة الأغاني: "كنت أود لو قبلتك.. لكن أخشى أن يرانا القمر". وهذه الأخيرة يُمكن كالعادة أن تبرق بصورة خاصة، على أن تُؤدى أداءً نارياً، بدلال وشباب، وعند ارتفاع صوتي مبهجاً إلى أقصى نبراته أقطع الغناء حتى ترتج القاعة كلها بالتصفيق". إلى جانب ذلك تعد الفنانة اثنتى عشرة أغنية احتياطية لتلبية طلبات الجمهور إذا استزادها.

وتمر الأيام بسرعة، كلمح البصر، فيتضخم فى روحها إحساس بأن ساعة الإعدام تقترب، وبالرغم من ذلك فإنها تتدرب، وتتدرب. وها هو اليوم، الأخير، المميت يحل فى نهاية المطاف !

فى صباح 72 ديسمبر تحتشد كل قواها متوترة إلى أقصى حد. مرة أخرى بروفة هذا الصباح، لكنها البروفة الأخيرة، الشاملة. تغنى أثناءها كما لو كانت تقف على منصة المسرح بالفعل: بملء صوتها، بكل قدرات التعبير الفنى، تغنى البرنامج كاملاً مع عازف مصاحب، وتستشعر أنه: "لم يضع جهدى هباء". ومع هذا فمن يدرى ما الذى ينتظرها هذا المساء؟ النصر؟ أم الموت؟ ويلتهب وجهها ويذاها، وتمضى بعد البروفة إلى غرفة نومها وتخلع ملابسها وترقد فى السرير. وتحمل أنوشكا إليها هناك شيئاً غير مألوف أبداً: كافيار، فروج بارد، نبيذ "بورت فين"، هكذا يوم الحفلة تظفر كل الفنانات الكبيرات. بعد تناول الطعام تطلب من أنوشكا إسدال الستائر فى الغرفة والانصراف والمحافظة على الهدوء التام فى الشقة. ثم تغمض عينيها فى الظلمة، مستلقية بدون أية حركة، وتحاول ألا تفكر فى أى شىء، وألا تتفعل لأى سبب، ساعة، وأخرى، والثالثة، وهكذا حتى السادسة مساء. وفى السادسة تنتفض من رقدتها جالسة فى السرير على جرس حاد فى الصالة. "إنه الحلاق"

ويدق قلبها، وتلتهب أذناها وعظمتا وجنتيها، ويبد باردة كالتلج تنقط لنفسها أربعين نقطة من سائل أثيرى، ثم تخطو لتجلس أمام المرأة فى ثوبها البيتى وشعرها المرسل مثل عذراء جاءوا لترتيبها ودفعها للموت.

يدخل الحلاق وقد أذفاً يديه سلفاً فوق موقد المطبخ. ويقول مشجعاً: ما أجمل الطقس فى هذا اليوم، صقيع هائل.. لكن ما أروع!

إنه يعمل بتأدب وبطء، ويشعر أنه شريك فى الحدث المقبل، وهو يدرك قلقها الفنى، ويقاسمها ذلك القلق، إنه فنان بطبعه. وهو بأحاديثه البسيطة، غير المكترثة، بنكاته، وبشكل عام بكل خبرته فى هذه الأمور، وهى خبرة لا تضارعها إلا ثقته الأكيدة فى نجاح الفنانة القادم، يطمئنها شيئاً فشيئاً، وينعش قواها، وجرأتها. ينصرف الحلاق بعد أن ينتهى من عمله، ويتفحصه من كل الجوانب، متأكداً من أنه لا يمكنه إضافة أية تحسينات على تسريحة وتصفيفة الشعر الرائعة هذه.

وتدق ساعة الحائط ببطء فى غرفة الطعام، وتعلن السابعة، ويتجمد قلبها من جديد: "سيأتون ليصطحبوها فى الثامنة والنصف".

تدق الساعة الثامنة، وهى لم تتأهب بعد. مرة أخرى تتعاطى نقطاً من دواء آخر، هذه المرة "جوفمانسكى". وترتدى أحسن ما عندها من الملابس التحتية، وتحمرّ وجنتيها، وتضع البودرة. فى الثامنة والنصف يرن الجرس الأخير الذى يصعقها كالبرق: "لقد وصلوا!"

وتهرول آنوشكا بصعوبة فى الصالة، وتبدو من شدة اضطرابها وكأنها شخص آخر، حتى أنها لا تتمكن من فتح الباب على الفور.

إنهم، هذه المرة، طالبان وصلا فى عربة خيل مستأجرة، قديمة وضخمة، مهيبة، شد إليها فرسان كبيران منهكان. طالبان غندوران، تجمدت أقدامهما من الصقيع. يمضيان إلى غرفة الضيوف، باردة ومملة كالعادة، تشتعل فيها مصابيح تفوح برائحة الكيروسين. يجلسان، وقد ارتدى نفس الزى المدرسى الموحد، رأسان يلمعان كالمرايا ويفوحان برائحة الـ "بريانتين" وعطر مثبت الشعر. على صدريهما عقدتان كبيرتان من الحرير الأبيض، بالضبط كوكلاء العرسان. يجلسان صامتين، يترقبان بأدب وثبات، يتطلعان إلى كل ناحية، إلى الأبواب المغلقة، إلى الزجاج المتجمد وقد انعكس عليه نور المصابيح شعلاً متلاثلة حمراء وزرقاء، إلى البيانو، وإلى صور المغنيات الشهيرات والمطربين المعلقة على الجدران، يسمعان طنين "الترمويات" المكتوم وصليلها من خلف النوافذ، ينصتان إلى صوت الخطوات القلقة لأنوشكا، والفنانة خلف الأبواب.. تنقضى على هذا النحو ربع الساعة، نصف الساعة، أربعون دقيقة، إلى أن ينفتح أحد الأبواب فجأة وبشكل غير متوقع، فيقفزان من مقعديهما كأنما بأمر عسكرى. وتمضى الفنانة نحوهما بسرعة قائلة ببسمة ساحرة لا مبالية:

. أستحلفكم بحق الله أن تعذرونى أيها السادة، يبدو أنى تركتكم تنتظرون؟ ماذا.. ترى هل أرف الوقت حقا؟ هيه.. حسنا فلنذهب إن شئتم، إنى جاهزة.

وبالرغم من الحمرة والبودرة، تشتعل البقع الأرجوانية - عبرهما - فى عظم وجنتيها، ويفوح فيها برائحة نقط زهر السوسن، ويدهاها برائحة الكريم، وفتانها الشفاف الرمادى الفاتح ينشر العطر. إنها تشبه الموت متوجهاً إلى حفلة! وقد ألفت بشيء ما من الدانتيل السوداء، إسباني، فوق شعرها الأشهب المجعد المنفوش من مختلف نواحيه فى تصفيفة معقدة ومرتفعة عالياً، ووضعت معطفاً من فرو ماعز أبيض مجعد على كتفيها العاريتين وقد برزت منهما عظمتا الترقوة كبيرتين.

أما الطالبان فيتدافعان من ورائها فى الصالة.

فى تلك اللحظة، يتناول الطالب الأنحف والأطول حذاء المطر، ويركع بسرعة واضعاً إياه على ركبته ويلبسه للفنانة فوق حذائها اللامع ذى الإبزيم الماسى، ويشم فى نفس الوقت رائحة فئران منبعثة من تحت ابطنها حين تتحنى لتساعده، وتشد بتواضع فى نفس اللحظة طرف ثوبها ليغضى أطراف القميص الداخلى الأبيض المشغول بالدانتيل..

غنت عن سحابة صادفت رعداً، وعن ملاذ من نوع ما "ربنا هبنا الملاذ"، وتألفت على نحو خاص فى "كنت أود لو قبلتك..". وأثناء هذه الأغنية قهقهه، بطريقة لازعة رجل عجوز وغلاط، كان جالساً بالصف الأول، وهز رأسه بصورة لا تحتمل إلا معنى واحداً هو: "لا شكراً.. لا تقبلينى من فضلك". لكنه للحق لم يلق تجاوباً من أحد، وحققت الفنانة نجاحاً باهراً، واستعادها الجمهور بلا توقف، وأرغمها على التكرار، استعادها خاصة الشباب المرهف الشعور الذى وقف فى الممرات بين الصفوف يزعم بشراسة ضارياً بمغارف كفوفه، مصفقاً بدوى هائل.

\*\*\*

## سرقة

السرقة موجودة عندنا. لكنها ثقل. البعض أصلح نفسه وكف عن السرقة. آخرون.. كيف أقول لكم؟ لا ترضيهم تشكيلة البضائع التى بالسوق. قسم آخر . وقد أصبح لا يرى كبار المليونيرات والملاك . ضبط نفسه، وصار يسرق الآن من الحكومة نفسها. لكنهم بدون شك، وهذا أمر طبيعى، لم يعودوا يسرقون بالطريقة التى كانوا يسرقون بها فيما مضى، فالمغفل وحده، الذى لا يفهم روح العصر، هو الذى يسرق فى أيامنا هذه. الكثيرون أصبحوا يفهمون "الروح العصرية" بصورة ممتازة مستوعبين بالفعل أحدث الاتجاهات.

على سبيل المثال، وقعت . من مدة بسيطة . حادثة سرقة فى جمعيتنا التعاونية، وفى تلك السرقة يمكننا أن نلمح على الأقل فكرة فلسفية.

واليكم كيف جرى ذلك.

الجمعية التعاونية، يعنى المحل، مفتوحة كمركز لتوزيع البضائع. وبداهة أن هذه البضائع كثيرة. بط للتصدير موضوع عند النافذة، سلمون . لماذا؟ لا أعرف. خنازير، لا تؤاخذنى، مقسمة إلى قطع كبيرة. جبن. هذا بالنسبة للأكل. الحاجات الأخرى أيضاً موجودة بكثرة. جوارب حريمى، أمشاط، إلى آخره. كل هذا ملقى بوفرة ومعروض فى "الفاترينة" بصورة مغرية.

وقطعاً وهذا شىء طبيعى، لفت ذلك نظر البعض.

خلاصة الكلام: شخص ما . من إياهم . تسلل فى ساعة ليلية إلى المحل عبر المدخل الخلفى، وهناك تصرف براحته على الآخر.

المهم، فى ذلك الوقت استغرق الحارس فى نومه عند البوابة، فلم يلحظ شيئاً مريباً، وقال فيما بعد:

. صحيح أنى رأيت بعض الأحلام فى هذه الليلة، لكنى لم أسمع من العالم الآخر شيئاً يدعو للريبة.

وبالمناسبة، لقد أصاب الحارس فزع حاد حينما اكتشفوا السرقة. وراح يهرول فى المحل هنا وهناك متشبثاً بأطراف كل من يراه، متوسلاً إليه ألا يوقعه فى ورطة، وما شابه هذا.

قال له المدير:

. ذنبك بسيط. بالطبع لن يريت أحد على رأسك امتناناً لك على نومك، لكن من المستبعد أن يلقوا لك تهمة ما. فلا تخف إذن، ولا داعى للتخبط هنا بين الأقدام، ولا تثر أعصاب عمال المحل بدهشتك. الأفضل أن تتصرف وتكمل نومك فى البيت.

لكن الحارس لم ينصرف. ظل واقفاً فى حالة تشوش وهو مغتم بسبب الكميات الكبيرة المسروقة من الأشياء وأخيراً قال:

. أما هذه، فلا يمكننى . بصراحة . أن أفهمها، أنا نومى خفيف، وحتى حينما أنام فإنى أمد ساقى بطول البوابة. غير معقول أنهم مروا عبرى بجوالين من السكر؟! هذه مسألة فى منتهى الغرابة!؟

قال المدير:

. نمت نوماً ثقيلاً جداً يا ابن الكلب! الكميات التى سرقوها شىء مرعب!

قال الحارس:

. مستحيل أن يأخذوا الكثير، وإلا كنت استيقظت.

قال المدير:

- طيب.. الآن سنضع كشف المسروقات وسنرى وجهك يا غراب البين، وسنرى حجم الخسارة التى جلبتها على الحكومة والتى لا يصدقها عقل..

وأخذوا يعدون كشف المسروقات فى وجود الميليتسيا(1)، وبدأوا، بعد الإحصاء والوزن وغير ذلك، يتصايحون بتعداد المسروقات.

ووقف الحارس المسكين لا يفعل شيئاً إلا ضرب كف بكف وقد أوشك على البكاء، إلى هذه الدرجة كما ترون يعانى مواطن آدمى أخذته الشفقة على الحكومة محتقراً نفسه لأن نومة أخذته.

يقول المدير:

- أكتب: "عشرة بود(2) سكر قوالب. مائة وستون علبة سجائر. دستتان من الجوارب الحريمية. ثمانى قطع كبيرة من لحم الخنزير....

وبينما كان المدير يملى، كان الحارس عند سماعه لكل رقم يقفز من مكانه.

وفجأة صاحت عاملة خزانة الفلوس:

- قيد عندك، سرقوا من الخزانة كوبونات قيمتها مائة واثنان وثلاثون روبل، وثلاثة أقلام كوبيا، ومقصاً واحداً.

ووصل الأمر بالحارس . عند سماعه هذه الكلمات . إلى درجة أنه جلس القرفصاء وصار يخور . إلى هذا الحد اغتم الرجل بسبب السرقات الضخمة، بينما صاح المدير بالميليتسيا:

. أبعادوا هذا الحارس إنه يعطلنا بخواره فحسب.

وقال له رجل الميليتسيا:

. اسمع يا عم، انصرف إلى بيتك سينادون لك حينما يحتاجونك.

فى هذه اللحظة زعق المحاسب من الغرفة الخلفية:

- كان عندى شال حرير معلقاً على الحائط، لكنه اختفى، أرجو أن تسجلوا أننى أطلب تعويضاً عن الخسارة التى حاقت بى.

وعلى غير توقع صاح الحارس:

---

(1) الميليتسيا: جهاز الشرطة السوفيتى. المترجم

المترجم. (2) بود: وحدة وزن تساوى 16.38 كيلو جراماً

. آه من هذا السافل! أنا لم آخذ هذا الشال من عنده، ولم آخذ كذلك قطع لحم الخنزير. هذه بالفعل مسخرة! أنا كل ما أخذته قطعتين.

وهنا ساد المحل صمت مطبق. واستطرد الحارس:

- كلب يلهفكم! نعم أنا الذى سرقت. أعترف. لكنى بالمقارنة بكم إنسان نظيف، ولا بد أن تعرفوا أن كتابة المحضر بهذه الصورة تغضبني.. ولن أسمح بتقييد أية مسروقات زائدة فى المحضر.

قال رجل الميليتسيا:

. كيف ذلك؟ هل أفهم من هذا يا عم أنك أنت الذى تسللت إلى المحل؟

قال الحارس:

- نعم أنا الذى تسللت، لكن يدي لم تمتد إلى الكوبونات المالية ولا إلى المقص ولم آخذ أيضاً ذلك الشال القذر. إذا أردتم أن تعرفوا فقد أخذت نصف جوال سكر ودستة واحدة من الجوارب الحريرية وقطعتين من لحم الخنزير. أما عمليات الاحتيال هذه فلن أذعها تمر باسمي. إن عملي هو حراسة مصالح الحكومة وما يجرى هنا يغضبني كإنسان سوفيتي مع قائمة المسروقات المنحطة هذه التي يمررونها باسمي.

قال المدير:

. نحن عرضة للخطأ دون شك. لكننا سنتأكد الآن من كل شيء، وسأكون سعيداً للغاية إذا اتضح أن المسروقات أقل. سنقوم بجرد كل شيء من جديد.

وارتفع صوت عاملة الخزنة:

. آسفة.. الكوبونات كانت مختفية فى الركن. الكوبونات موجودة، لكن المقص غير موجود.

زعق الحارس:

. آخ.. والله لأبصق الآن فى عينها التى لا تستحى! قلت إنى لم آخذ المقص من عندها، ابحثى باهتمام، أحسن لك يا رجل الفرخة! وإلا خلعتك من وراء الخزنة الآن فوراً.

وعادت عاملة الخزنة تقول:

. آه... مضبوط.. وجدته، كان مختفياً راقداً وراء الخزنة هناك.



وقال المحاسب:

. لقيت الشال، كان فى جيبى الجانبى.

وهنا قال المدير:

. طيب ..اكتب المحضر من جديد. فعلاً المسروق نصف جوال فقط من السكر.

انفجر الحارس:

- احسب عدد قطع اللحم، وإلا فأنا غير مسئول عما سيبدر منى! ومادامت المسألة قد وصلت إلى هذا الحد فإن عندى شاهدة تؤكد أقوالى.. خالتى أنيوشا.

وسرعان ما أنهوا إحصاء المسروقات، واتضح أنها تطابق بالفعل ما اعترف به الحارس تماماً.

وقادوا الرجل إلى قسم الميليتسيا تحت الحراسة. واحتجزوا خالته أنيوشا التى كانت المسروقات مخبأة عندها.

وهكذا، كما ترون بأنفسكم، سرق البعض ما قيمته "كوبيك" واحد فحوله البعض الآخر إلى ألف. ويحس الإنسان فى مثل هذه الحالة بالنشاط العصرى، والتخليق المبدع للفكرة الفلسفية، وهو أمر كما يقولون تستحيل الحياة بدونه الآن. بغير ذلك لا يسرق الآن إلا المغفل الذى سرعان ما يقع فى أيدى السلطة

\*\*\*

## الكراهية

فى الحرب، تشبه الأشجار البشر، فتلقى كل شجرة مصيرها الخاص، بطريقتها الخاصة. وقد تسنى لى أن أرى الأشجار وهى تتهاوى من قصف نيران مدفيعتنا فى مساحة كبيرة بإحدى الغابات، وكان الألمان قد تحصنوا بها بعد أن أجبرناهم على التراجع عن الغابة "س"، وظننت

قوات العدو أن إقامتها ستطول فى الغابة الجديدة، ولكن الموت حصدها حصداً مع الأشجار، ورقد الجنود الألمان موتى عند جذوع أشجار الصنوبر المتهدمة، وقد تقيحت جثثهم أشلاء مقطعة وسط نباتات السرخس، وفاح عطر "الراتينج" بشدة من أشجار الصنوبر المنهارة، إلا أنه لم يبدد فى الجو الرائحة الحادة، النفاذة، الخائقة التى انبعثت من نتن الأبدان المتحللة. وبدا وكأن الأرض نفسها وحفر القنابل ذات الحواف الخشنة داكنة السمرة، تنتشر فى الأجواء رائحة القبور.

ساد سكون الموت وجلاله ذلك المرح من الغابة الذى حرثته قنابلنا ولكن شجرة بتولا واحدة، نجت من الموت بمعجزة وظلت واقفة فى منتصف المرح، والريح تؤرجح أفرعها التى أصابتها الشظايا وتغمغم بين أوراقها الغروية اللامعة.

تقدمنى جندى المراسلة ونحن نعبر المرح، ورأيتته يتحسس ساق البتولا بنعومة، ثم تساءل بدهشة صادقة يغمرها العطف: "كيف نجوت

أيتها العزيزة؟". حين تصيب القذائف شجرة صنوبر، فإنها تتقصف كأنها جزت بمنجل، ولا يبقى منها سوى رأس مشرشر تبرز منه الأشواك ينز صمغ الشجرة. أما شجرة البلوط فتواجه مصيرها على نحو مختلف، وقد رأيت شجرة بلوط عتيقة نهضت على ضفة نهير، فأصابها ساقها إحدى القذائف الألمانية واخترمتها ثغرة متعرجة، فتبيس نصف الشجرة العلوى، وانحنى . عند الانفجار . نصفها الآخر ومال صوب المياه. وبعث الربيع الشجرة من الموت على نحو مذهل، فاكتمت أفرعها بالأوراق الجديدة النامية، ولعل الأفرع المحنية ما تزال تشرب من الماء الجارى فى طفوها على سطح النهير، ونصف الشجرة العلوى ما يزال بلهفة يمد نحو الشمس أوراقه المشدودة الدقيقة.

\*\*\*

جلس الملازم "جيراسيموف" عند مدخل الخندق، وشرع يقص علينا بالتفصيل وقائع المعركة التى خاضتها كتيبته اليوم، وكيف نجحت فى صد هجوم من دبابات العدو.

كان "جيراسيموف" طويل القامة، محدودب الظهر قليلاً، وكتفاه عريضتان مرتفعتان ولذا بدا مثل الصقر، بينما كان وجهه نحيفاً هادئاً وقد رانت عليه لا مبالاة غريبة. كان يسرد علينا ما جرى بصوت غليظ مشروخ وبين وقت وآخر يزر عينيه المتوهجتين من الإرهاق؛ وفيما ندر كان يشبك أصابع يديه بمفاصلها النائثة ببعضهما البعض، ومن الغريب أن هذه الحركة التى لم تكن تتسجم مع بنيته القوية وملامح وجهه الشجاع الحيوى، كانت تعبر بشدة عن فاجعته الخرساء أو استغراقه العميق فى أفكار مضنية.

وفجأة توقف "جيراسيموف" عن حديثه، وانقلب لون وجهه فى لحظة: فشحب خداه السمراوان، واختلجت عضلات فكه السفلى، وحجج بتركيز وثبات أمامه وقد توهجت عيناه بكراهية ضارية لا تخمد حتى أننى استدرت بشكل تلقائى ناظراً فى الاتجاه الذى تطلع نحوه؛ وهناك رأيت ثلاثة من الألمان الأسرى يمرون عبر خطوط دفاعنا الأولى متجهين نحو الغابة، يسير من خلفهم أحد جنودنا ببطء فى رداءه الصيفى الذى أحالت الشمس لونه فصار أبيض تقريباً بينما تدلت خوذته خلف رأسه وراحت بندقيته تتأرجح فى يده على إيقاع خطواته، وللحظة غشى عيني ومض ذؤابة نصل بندقيته فى الشمس.

مشى الألمان الثلاثة فى أحذية ملطخة بالوحل الأصفر، يجرجرون أقدامهم بنتأقل. كان الأول منهم رجلاً تجاوز سن الشباب، غائر الوجنتين، نما على وجهه شعر داكن، خشن وقصير، وحين دنا فى سيره بمحاذاة الخندق ألقى علينا نظرة ذئبية جهمة، ثم انحرف قليلاً عن مشيته وهو يعدل وضع خوذته المعلقة إلى وسطه. حينئذ وثب "جيراسيموف" مندفعاً من مكانه وهو يصيح فى جندى الحراسة بصوت حاد كالعواء:

. ما هذا؟ هل تقوم بنزهة معهم؟ أسرع الخطو.. قلت لك بسرعة.. هيا.

كان واضحاً أنه يود أن يقول أكثر من ذلك، لكن أنفاسه كانت قد تقطعت فى سورة غضبه، فاستدار على عقبه بعنف وانطلق يهرول هابطاً السلم إلى الخندق. كان المسئول السياسى جالساً، فأجاب على نظرتى المندهشة قائلاً بصوت خفيض:

. ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً، فأعصابه مرهقة للغاية؛ لقد عاش تجربة الأسر فى معسكرات الألمان. ترى ألم يكن لديك علم بذلك؟ حينما يتوفر لديك الوقت، جاذبه أطراف الحديث، ودعه يقص عليك تجربته تلك. لقد عانى الكثير فى معسكرات الاعتقال النازية، فلم يعد يطبق النظر إلى جنود النازية الأحياء، نعم الأحياء. أما القتلى منهم فإنه يتطلع إليهم بهدوء، بل ولعله يحس بنوع من الراحة فى تلك اللحظات، لكنه عند رؤيتهم أحياء أسرى يغلق عينيه على الفور ويمكث جالساً والعرق يتصبب منه، أو يتحول عنهم، وينصرف إلى مكان آخر.

ودنا المسئول السياسى منى وقد خفت صوته حتى قارب الهمس:

. لقد اشتركت معه فى شن هجوم على العدو مرتين. كنت معه ورأيت أثناء المعارك قوياً كحصان، يكشف لك فى نيران الهجوم عن قدراته. لقد تسنى لى أن أرقب الكثيرين من الرجال المقاتلين، لكنى لم أر مثله مدافعاً مهاجماً بمؤخرة ونصل البندقية. شىء مذهب لو تدرى.

\*\*\*

فى تلك الليلة، قامت مدفعية الألمان الثقيلة بقذف مواقعنا بنيران متلاحقة على فترات زمنية متساوية، ومن بعيد كانت تبتهاى إلى أسماعنا أصوات إطلاق القذائف، ثم تنقضى بضع ثوان من السكون لنسمع عالياً فوق رؤوسنا أزيز القذائف منتشرة كالنجوم فى السماء بصوتها المعدنى الذى يزداد قوة، ليضعف ويتلاشى بالتدريج خلفنا عند الطرق التى تزدحم نهاراً بعربات نقل الذخيرة إلى خط القتال، ومن هناك يدوى عالياً صوت الانفجارات المتتالية، وتومض القذائف مرتفعة فى الأجواء بأعمدة اللهب الأصفر.

فى فترات الهدوء التى تتخلل إطلاق النيران، يسود الهدوء الغابة ويصبح بوسعك أن تسمع طنين الباعوض عند المستنقع القريب ونقيق الضفادع وهى تتنادى قلقة بعد إطلاق النيران.

كنا نرقد تحت شجيرة جوز، حين شرع الملازم "جيراسيموف" يروى لنا قصته بتمهل، وهو ينش . من وقت لآخر . الباعوض بفرع شجرة مكسور . وسأحاول أن أروى لكم هنا قصته، بقدر ما تسعبنى الذاكرة..

بدأ "جيراسيموف" قائلاً:

"قبل الحرب كنت أعمل ميكانيكياً فى مصنع بغرب سيبيريا، وفى السنة الماضية، فى 9 يوليو، استدعونى إلى الخدمة العسكرية، وعند سفرى وقتت أسرتى تودعنى: زوجتى وولداها وأبى العاجز. وانهمرت دموع زوجتى كما يحدث عادة فى تلك المواقف، ومع ذلك والتتى بنصائحها:

. "استقتل فى الدفاع عن بلدنا وعنا، ولا تخف الموت ساعة الجد، المهم أن نخرج من هذه الحرب منصورين". وأذكر أننى ضحكت عقب كلماتها، وقلت لها: "هل أنتِ زوجتى أم محرض الأسرة السياسى؟ من تظنين نفسك؟ على أية حال كونى واثقة، فأنا رجل كبير وعاقل ولا تشغلى رأسك بخصوص النصر، تأكدى أننا سننتزعه مع حلو ق جنود العدو".

وبطبيعة الحال، كان أبى ساعة السفر أكثر تماسكاً من زوجتى، ولكن لم يكن هناك مفر من الإنصات إلى نصائحه وتوصياته:

. "يا فيكتور يا ولدى.. كن حريصاً فأنت من عائلة "جيراسيموف"، واسمنا معروف وله وزنه، فاذكر أنك سليل أسرة من العمال، جدك كان يعمل عند عائلة "ستراجانوف" وظلت عائلتنا مئات السنين تستخرج الحديد للبلد، فكن كالحديد فى الحرب، الحكومة حكومتك وهى التى عينتك قبل الحرب رئيساً للمخازن.. أتفهمنى؟ اضرب أعداءنا بشدة".

قلت له:

. "سيكون كل شىء على ما يرام يا أبى، فاطمئن".

فى طريقى إلى محطة القطار عرجت على مجلس المنطقة الحزبى. وكان سكرتير المجلس رجلاً جافاً فى معاملته، يناصر كل ما هو منطقى فحسب، وفكرت بينى وبين نفسى: إذا كان أبى وزوجتى لم يتركانى أسافر من دون "توعية وتعبئة"، فلا شك أن سكرتير المجلس الحزبى لن يعتقنى أبداً، وسيلقى على خطبة عصماء تستغرق نصف ساعة على الأقل.. نعم.. سيلقى خطبة من كل بد!

قال لى الرجل:

. اجلس يا "جيراسيموف". فلنقعد دقيقة للطريق قبل السفر(1).

جلسنا دقيقة ونحن صامتين، ثم نهض سكرتير المجلس، ولمحت كيف غام زجاج نظارته. وقلت لنفسى: تفضل انظر ما يجرى اليوم من أشياء غريبة.

وقال لى السكرتير: ليس هناك ما يستحق الإيضاح يا "جيراسيموف". أنى أذكرك منذ كنت ولداً صغيراً ترتدى ربطة عنق "الرواد"، ثم حين كبرت وصرت عضواً بـ "الكومسومول"، وعرفتك بعد ذلك . رجلاً شيوعياً . على امتداد عشرة أعوام. سيقلك القطار إلى جبهة القتال بعد قليل، فاضرب أولئك السفلة من دون شفقة أو رحمة. منظمنا الحزبية هنا تأمل أن تسمع عنك كل ما هو مشرف".

للمرة الأولى فى حياتى عانقت سكرتير المجلس وقبلته. لقد مر اللقاء على عكس ما تصورته حقاً، ليس من السهل أن تعرف الإنسان. لقد رأيت فى الرجل الجاف كالبخيز المحمص إنساناً آخر. وغمرنى دفاء من مودته فخرجت من عنده سعيداً وقد هزنى اللقاء.

عند محطة القطار، روّحت عنى زوجتى بدورها. ويعرف الجميع أن زوجة تودع زوجها الذهاب إلى الجبهة لا يمكن أن تكون سعيدة! أربكها الفراق الوشيك، وجعلها الحزن مشوشة، مشتتة، وطير أفكارها من رأسها، وبدا لى طوال الوقت أنها تريد أن تقول لى شيئاً مهماً للغاية لكنها لا تعرفه.. حينما شرع القطار يتحرك أخذت تهول بمحاذاة شباك العربة الذى أطل منه، ولم تفلت يدي من يدها وهى تقول بلهجة: "انتبه لنفسك يا فيكتور، إياك أن تمرض فى الجبهة". وقلت لها: "ماذا جرى لك يا نادية؟ تأكدى أننى لن أمرض مهما حدث، وخاصة أن الطقس هناك ممتاز لا يعرف التقلبات".

كان الوداع مرّاً على نفسى، رغم أن ما قالتة زوجتى من كلمات حبيبة وحمقاء قد روّح عن نفسى، لكن طعم الوداع المرير كان عالقاً بروحى، واندلعت فى نفسى كراهية عنيفة للألمان.

---

(1) من عادات الروس، أنه إذا تهبأ الإنسان للسفر، جلس معه الأهل والأصدقاء دقيقة صامتين، ليصبح طريقه طريق السلامة. المترجم.

وقلت لنفسى: لقد بدأ جارنا الألماني عديم المبدأ بالعدوان، فليتماسك الآن، فسوف نطحنهم إلى النهاية.

صمت "جبراسيموف" عدة دقائق، لينصت إلى الأصوات المتفجرة من المدافع الرشاشة وهي تتبادل النيران بعيداً عن خط القتال الأمامى، وحينما سكنت المدافع، واصل حديثه كما بدأه فجأة:

. "قبل نشوب الحرب، كانت المعدات الألمانية ترد من ألمانيا إلى المصنع الذى عملت به، وعند تجميع الآلات فى الورشة، كنت أحياناً أقلب بين يدي مرة واثنين وخمس كل جزء دقيق من تلك المعدات وأتأمله متفحصاً من كل الجوانب.. فلا يسعنى إلا الاعتراف بمهارة الأيادى التى صنعت ذلك. وكنت أقرأ أعمال الكاتب الألمان وأقدرهم حق قدرهم، واعتدت أن أنظر إلى الشعب الألمانى عامة باحترام. واشتعلت الحرب بداية فى أوروبا الغربية، فكنت فى بعض الأوقات أحس بالأسف لأن شعباً كادحاً وموهوباً مثل الشعب الألمانى يحتمل بصبر نظام النازية السافل.. وحين مضى القطار مسرعاً فى طريقه إلى الجبهة خطر لى أن الجيش الألمانى متفوق، وأسلحته ومعداته ممتازة، ومع ذلك فإن التصدى لمثل ذلك العدو وكسره نصفين أمر مشرف وباعث على الفخر. والحق أننا لم نكن . عام 1914 . قشاً يمكن حرقه بسهولة، كما أننى لم أتوقع للحظة واحدة أن يقاقلنا ذلك العدو قتالاً نظيفاً، فعن أى شرف يمكن أن يدور الحديث حين يتعلق الأمر بالفاشية؟! بالرغم من هذا، فلم يخطر ببالى أبداً أنه سيتحتم علينا خوض المعارك ضد عدو بمثل هذه السفالة وموات الضمير التى كسفت عنها جيش النازية الهتلرى.

وصلت كتيبتنا إلى الجبهة فى نهاية شهر يوليو. وفى الصباح الباكر، فى السابع والعشرين من ذلك الشهر، شاركنا . للمرة الأولى . فى المعارك. كان القتال فى البداية مخيفاً بدرجة ما وذلك لحدائثة عهدى به. وقد تفوق العدو علينا فى بداية التحامنا به، ولكن مع حلول المساء كانت كتيبتنا قد تمكنت من استخدام السلاح، وتبدد خوف المعركة الأولى، فتقدم الرجال وتوالت اللطمات على وجه الألمان فكسرنا لهم أسنانهم، وطردناهم من القرية التى كانوا بها، بل وأسروا منهم . فى نفس الموقعة . خمسة عشر جندياً. أذكر كيف قاد رجالنا الأسرى الألمان، أذكر ذلك كأنه يجرى الآن أمام عيني.. كانت وجوههم شاحبة، وقد حط عليها الذعر، أما رجال كتيبتي فقد تناثروا يسترخون بعد المعركة، وأخذ كل منهم يقدم للأسرى ما فى وسعه: أحدنا أتى إليهم بدلو ممتلئ بالشورية، والآخر بسجائر، والثالث قدم إليهم أقداح الشاي. كانوا يقومون بذلك وهم يخبطون ظهور الألمان، وينادونهم "يا زملاء"، ويسألونهم "ما مصلحتكم فى هذه الحرب أيها الزملاء؟".

أثناء ذلك، كان أحد المقاتلين القدامى من رجالنا يتطلع إلى ما يجرى، ولبث مدة يتأمل تلك اللوحة المؤثرة، ثم قال لنا: "لقد أثار هؤلاء الزملاء شفقتكم.. نعم.. فكلهم فى الأسر يصبحون "زملاء"، ليتكم رأيتم ما يقوم به هؤلاء "الزملاء" هناك وراء خطوط القتال، وكيف يعاملون جرحانا والسكان العزل". قال ذلك ثم استدار ومضى، بعد أن انصبت علينا كلماته كأنها ماء بارد.

فى فترة لاحقة انتقلنا من حالة الدفاع إلى الهجوم، متوغلين فى الأرضى التى احتلها الألمان، وهناك.. شاهدنا ما يبعث على الرعب حقاً: القرى التى أحرقت عن آخرها، مئات النساء والشيوخ والأطفال وقد تناثرت جثثهم فى كل مكان بعد أن أفرغت فيهم طلقات الرصاص، وجثث من كانوا فى الأسر من جنودنا وقد مثلوا بها، وأبدان النساء المغتصابات وقد قتلن بوحشية، بل وشاهدنا جثث البنات الملقاة على الطريق، وجثث البنات القاصرات أيضاً.

لكن صورة بالذات لم تفارق ذاكرتى من بين كل ما رأيته: كانت صبية لا يتجاوز عمرها الحادية عشرة، لا أكثر من ذلك، والأرجح أنها كانت تسير قاصدة المدرسة، فأمسكوا بها وجرجروها بالقوة إلى الحديقة القريبة، وهناك اغتصبوها.. ثم أفرغوا فيها رصاصهم. مازلت أراها ملقاة بين أوراق حبات البطاطس المدعوسة وقد تبعثرت من حولها كراسات المدرسة وكتبها غرقى فى الدماء. لم تكن أكثر من بنت صغيرة، طفلة تقريباً، رقدت وقبضة يدها متشنجة لا تفلت ذراع الحقيبة المدرسية المفتوحة. لا أدرى لماذا شجوا وجهها الصغير بساطور على ذلك النحو الوحشى؟ غطيناها بقطعة من قماش الخيام، ووقفنا أمامها صامتين. تفرق الرجال دون صوت، وظللت واقفاً وأخذت وأنا أرتجف من الانفعال أقرأ بصوت خفيض: "الجغرافية الطبيعية. للمدارس الابتدائية والاعدادية". كان ذلك الكتاب الملقى على الأعشاب مألوفاً، فهو الكتاب المقرر على ابنتى التلميذة بالسنة الخامسة الابتدائية.

كان ذلك فى "روجين"، وعند "سكفير" وقع بصرنا على واد ضيق عذبوا فيه رجالنا الأسرى. لقد بدا المكان مثل حوانيت الجزارة تقريباً: كانت جذوع الأبدان البشرية تتدلى من الأشجار، مدماة، بلا أياد ولا أقدام، وقد سلخوا جلودها. وفى قاع الوادى رأيت كومة ملقاة فى ناحية، كومة من ثمانية من رجالنا. وكان من المستحيل أن تعرف أية ذراع، وأية ساق، لأية جثة من الرجال. كومة من اللحم المجزور.. لا أكثر، تراصت فوقها مثلما تتراص الأطباق ثمانية أغطية من أغطية الرأس.

أتظن أن كلمتى قد تصف لك أو تعبر عما شاهدته؟ لا. ثمة أشياء تعجز الكلمات عن تجسيدها، لا بد لك أن ترى بنفسك ما وقعت عليه عيناى.

صمت "جيراسيموف" لفترة من الوقت، وسألته: "هل يمكننى هنا أن أشعل سيجارة؟" أجابنى بصوته الأجهش: "نعم، ولكن داريها فى قبضتك". وأشعل سيجارة هو الآخر وواصل قائلاً:

- "لعلك تفهمنى، لو قلت لك إننا صرنا كالوحوش الضارية، بعد أن روعنا كل ما اقترفه جنود العدو، ولم يكن بوسعنا ألا نتوحش. لقد أدركت كتيبتنا كلها أننا نحارب ذئاباً مسعورة ولغت فى دماننا فانتشت وتضخمت كالغيلان. كانوا يذبحون ويهتكون أعراض أخواتنا ويعذبون أهلنا بنفس الدقة والمهارة التى لمستها بنفسى فيما صنعه من معدات ومخارط وآلات.

فيما بعد، أرغمونا على التقهقر والانسحاب، ومع ذلك كنا أثناء تراجعنا نشترك معهم، ونتصدى لهم كالجن الأزرق. كان أغلب رجال كتيبتى من سيبيريا، واستشهد الكثيرون منهم فوق أرض أوكرانيا، حيث دارت تلك المعارك دفاعاً عن أوكرانيا، وقد حارب الرجال ببسالة واستماتة لا نظير لها، وبالرغم من تقهقرنا إلا أننا أذقناهم الويل على أصوله ودفنا منهم عدداً كبيراً.

شد الملازم "جيراسيموف" دخان سيجارته بنهم، وتابع بنبرة أرق:

. ما أجملك يا أرض أوكرانيا الطيبة، وما أجمل الطبيعة هناك..

لقد صارت كل قرية صغيرة، وكل شجرة عزيزة على قلوبنا، ربما لأننا بذلنا دماءنا وأرقناها هناك، والدم كما يقول المثل يخلق القرابة والمودة، وكنت فى كل مرة ننسحب فيها من إحدى القرى أحس بالألم يعتصر قلبى، وكأن لعنة قد حقت عليه. كان تقهقرنا يثير شعوراً عميقاً بالأسف المرير. وفى أثناء تراجعنا كان الرجال يتجنبون النظر إلى بعضهم البعض.

حينذاك، لم يطرأ لى أنه قد يحل علىّ يوم أكون فيه أسيراً لجنود العدو. لكن ذلك ما جرى.

فى سبتمبر، اشتدت المعارك عنفاً، وأصبت . للمرة الأولى . بجرح لم يمنعنى من البقاء مع كتيبتى. وفى الحادى والعشرين من نفس الشهر فى الموقعة التى دارت حول "دينيفسكى" و "بالتافسكى"، أخذت دبابات العدو تخترق جناحنا الأيسر، واشتد هجومها حتى نجحت فى إحداث ثغرة، فنفذ المشاة منها متدفقين بكثرة، وقمنا بصد هجومين من الدبابات وأثناء ذلك دمرنا وأحرقنا ست دبابات وعربة مصفحة، ثم تراجعنا إلى حقل ذرة واسع فلاحقونا هناك، وأسقطنا منهم مائة وعشرين جندياً، وحينذاك استعانوا بمدفعية الهاون الثقيلة، وتكاثفت النيران علينا فاضطررنا لتسليم التلة التى كانت فى أيدينا منذ منتصف النهار وحتى الساعة الرابعة، وأخذنا فى الانسحاب. وعانت كتيبتى من خسائر كبيرة فى الأرواح، ولكننا كسرنا الحصار المضروب علينا وخرجنا منه ونحن نقاتل.

فى ذلك اليوم كان الجو حاراً منذ مطلع النهار، ولم تعبر السماء سحابة واحدة، واشتد قيظ الشمس حتى شعرنا أن الجو قد خلا من نسمة هواء ننتفسها، وكنا نعانى من عطش قاس وقذائف العدو تلاحقنا بكثافة ونحن ننسحب، واشتد علينا العطش حتى اسودت شفاه الرجال، وأثناء ذلك كنت أعطى الأوامر لتنظيم تراجعنا بصوت أجش غريب لم أتعرف عليه، وكنا نمضى فى اتجاه وهدة بعيدة حين انفجرت أمامى بالضبط إحدى القذائف، وأذكر أنني رأيت عموداً من الغبار الهائل يرتفع من الأرض إلى أعلى، ولم أر سواه.

لا أدرى كم من الوقت ظللت راقداً على الأرض فاقد الوعى، لكنى بدأت أسترد وعيى على صوت خطوات تقترب منى. رفعت رأسى فوجدتني راقداً فى مكان غير الذى سقطت فيه، وقد نزعت عنى ملابسى العسكرية، وكذلك لم أجد خوذة رأسى. ولمحت كتفى مضمدة كيفما اتفق



ورأسي ملفوفاً بربطة شاش غير محكمة تدلى طرفها فوق صدري. لقد اخترقت إحدى الشظايا خوذتي نافذة إلى رأسي، بينما استقرت شظية أخرى في كتفي اليمنى. وتصورت للحظة خاطفة أن رجال كتيبتى . حين سقطت فاقد الوعي . قاموا بنقلي إلى مكاني الجديد، وضمّدوا جراحي أثناء سيرهم، ورفعت رأسي متوقفاً أن أرى زملائي من حولي.. لكن جنود العدو هم الذين هربوا نحوي، وهم الذين ردوني إلى وعيي بوقع خطواتهم. رأيتهم بوضوح ودقة كما ترى الأشخاص على شاشة سينما واضحة. تحسست ما حولي، فلم أعثر على بندقية أو مسدس أو قنبلة يدوية. وأدركت في التو أن أحد رجالي فضل أن يجردني من سلاحى وحقبيبة اللوحات الطبوغرافية.

وقلت لنفسى: "هذه هي النهاية". وتناوبت علىّ مختلف الانفعالات والأفكار التي لم يسعفني الوقت لاستيضاحها، فإذا كانت قصتي هذه قد تنفك مادة لرواية تكتبها، فتخيل أنت ما يرد إلى العقل من أفكار في مثل هذه المواقف واملأ هذه الثغرة من قصتي.. على أية حال، أخذت جنود العدو تدنو مني، ودهمني شعور بمهانة رقدتي في انتظار الموت.. تمنيت لنفسى الموت بكل الطرق إلا تلك.. هل تدري قصدي؟ ولا أدري كيف استجمعت قوى متكناً على ركبتى مستنداً إلى الأرض بيدى بحيث أنى وقفت على قدمي منتصباً أمام الألمان حين وصلوا إلىّ. وقفت، ولكنى كنت أتطوح في مكاني، وأصابني الرعب من أن أقع على الأرض، فيقضون علىّ وأنا راقد لا حول لي ولا قوة. لا أذكر الآن وجهاً واحداً من وجوه أولئك الجنود الذين أحاطوا بي وهم يقهقهون. أذكر فقط أنى صرخت فيهم: "اقتلوني.. اقتلوني أيها السفلة قبل أن أسقط". ولطمني أحدهم على رقبتي بمؤخرة البندقية فوقعت على الأرض ولكنى وقفت في الحال مرة أخرى. وعلت قهقهاتهم، وأشار أحدهم بيده كأنما يقول لي: "سر إلى الأمام إذا استطعت.. تقدم". وسرت نحوه بالفعل ووجهي ملطخ بالدماء الجافة، تجرى عليه من جرح رأسي خيوط من دم متدفق، دافىء ولزج. واعتصر الألم كتفي المصابة، وتمنيت من أعماقي أن أرقد على الأرض من دون حركة. ولكنى واصلت سيرى إلى الأمام، ليس بدافع إنهاء حياتي أو الوقوع في الأسر خلاصاً من آلامى، لكن الرغبة فى النجاة هى التى قادتنى، سرت متغلباً بمجهود هائل على دوار الرأس ورغبتي فى القىء.. سرت فأدركت أننى مازلت حياً وأستطيع أن أفعل ما أريد. ألم واحد فاق كل الآلام: الظمأ المعذب الذى شقق حلقي الجاف، وبينما كانت قدماى تخطوان تماوجت أمام عيني غلالة سوداء. كنت . دون أن أدري . فاقد الوعي تقريباً ومع ذلك كنت أتقدم إلى الأمام وقد خلت أننى ما أن أشرب فأرتوى وألتقط أنفاسى مستريحاً قليلاً حتى أعدو هارباً.

عند طرف من أرض مشجرة، جمعوا كل من وقع فى الأسر. أوقفونا فى صف واحد، أغلبه من الجرحى، من فرق وألوية جاورتنا، ومن كتيبتى لحظت اثنين فقط.

سأل الضابط الألماني بروسية ركيكة:

. هل بينكم موجهون سياسيون أو ضباط من ذوى الرتب الكبيرة؟

ولزم الجميع الصمت. فقال من جديد:

. فليتقدم الموجهون السياسيون والضباط خطوتين للأمام.

ولم يتحرك أحد من بيننا. وسار الضابط الألماني ببطء مستعرضاً وجوهنا واحداً بعد الآخر، وهو يسأل كل منا: "هل أنت موجه سياسي؟". ولم يكن يتمهل لكى يسمع الإجابة بل كان يأمر من يقع عليه اختياره بالخروج من الصف. وهكذا انتخب مجموعة من مختلف الجنسيات: من الروس، والأوكرانيين، والأرمن وغيرهم. وقادوهم بعيداً عنا فى ناحية ثم أفرغوا فيهم نيران المدافع الرشاشة ورأيناهم يتساقطون مخرجين بدمائهم. بعد ذلك فتشونا بسرعة، وعثروا على محافظ عند البعض منا فاستولوا عليها وعلى كل الأشياء الشخصية. ولم أكن أحمل بطاقتى الحزبية داخل محفظتى، خشية أن أفقدها، كنت أخفيها فى الجيب الداخلى من السروال، ولم يعثروا عليها أثناء التفتيش السريع. حقاً إنه لمخلوق عجيب هذا الإنسان، فقد كنت أعرف أنهم إذا لم يقتلوني فيما بعد أثناء محاولة هرب، فسيقضون على أثناء الطريق إذا لم استطع أن أجارى الآخرين فى سرعة مشيهم من كثرة ما فقدت من دماء، وعلى الرغم من كل ذلك، حينما انتهى التفتيش وظلت بطاقتى الحزبية معى، غمرتني بهجة عجيبة حتى أنى نسيت للحظة لهب الظمأ.

صفونا فى طابور واحد ودفعونا إلى السير فى اتجاه الغرب. وكان يجرسنا على جانبي الطريق عدد كبير من جنود العدو، غير عشرة من ركاب "الموتوسيكلات". أجبرونا على المشى بخطوة سريعة، وخارت قواى بعد فترة صغيرة فسقطت واقعاً على الأرض مرتين، وكنت أنهض بسرعة من جديد مواصلاً السير، لأننى أعرف أنهم سيطلقون النار على فوراً إذا طالت رقدتى لأكثر من دقيقة واحدة، هذا ما وقع لجندى كان يمشى أمامى، سار بصعوبة بالغة وهو يئن طيلة الوقت، بل وكان يصرخ أحياناً من شدة الألم الذى ينتابه من ساقه الجريحة. مشينا أكثر من كيلو متر على هذه الحال، إلى أن توقف وصرخ بصوت عال: "لم أعد أستطيع.. لا.. ليس بوسعى.. وداعاً أيها الزملاء". وانهار جالساً فى وسط الطريق. أسرع القريبون منه لمعاونته على النهوض، وأوقفوه على قدميه عدة مرات، لكنه كان فى كل مرة يتهاوى على الأرض من جديد.

وأذكر، كأنما فى حلم، وجهه الشاب الشاحب وحاجبيه المقطبين، وعينيه المغرورقتين بالدموع. واصل الطابور سيره إلى الأمام. وظل هو وحده ملازماً مكانه خلفنا. واستدرت برقبتي إلى الوراء، نحوه، وشاهدت جندياً من راكبي الموتوسيكلات يقترب منه، ودون أن ينزل عن الموتوسيكل، أخرج مسدسه من جرابه وصوبه نحو أذن زميلنا وأطلق النار عليه دون كلمة واحدة.

حين وصلنا إلى شاطئ النهر، كان جنود العدو قد أفرغوا رصاصهم فى عدد من رجالنا الذين عاقتهم جراحهم عن مواصلة السير.

نظرت إلى النهر، وإلى جسر مدمر كان يصل بين ضفتيه، ورأيت عربة نقل مقلوبة تسد جانباً من الطريق، ثم سقطت على وجهى. ترى هل فقدت وعيى؟ كلا. لقد رقدت وفى ممثلىء بالتراب، وأنا أكز على ضروسى من قهرى، حتى تفتت التراب بينها. لكنى لم أستطع أن أنهض واقفاً. ومر زملائى من جانبي، وهمس أحدهم بصوت خافت: "انهض وإلا قتلوك فوراً". وضغطت

عيني بعنف ومزقت فمي بأصابعي، لعل الألم يردني إلى نفسي فأنهض. وتخطاني طابور الأسرى وبدأت أسمع حفيف عجلات الموتوسيكل يدنو مني. وقمت. ورحت أمشي مترنحاً كالمخمور، بل وأرغمت نفسي على اللحاق بالطابور والانتظام في مؤخرته.

سبقتنا دبابات العدو وعرباته الآلية وعبرت النهر وعكرت ماءه، ومع ذلك فقد عيبنا من ذلك الماء بنهم، وشربنا ذلك الطمي البني الدافئ، وبدا لنا أنه من أصفى مياه الينابيع. بللت رأسي وكتفي بالماء، فانتعشت وعادت إليّ قواي. الآن أصبح بوسعي أن أمشي آملاً أنني لن أنهار واقعاً، ولن أرقد على الأرض.

اجتزنا النهر، ومضينا أبعد قليلاً، ومن أمامنا أقبل علينا رتل من دبابات العدو يتحرك صوبنا، وما أن رأى سائق الدبابة التي بالمقدمة أننا من الأسرى حتى ضغط على دواسة الوقود إلى النهاية مندفعاً بدبابته بأقصى سرعة نحو الصفوف الأولى منا، فهرس من هرسه من الرجال وسحق الآخرين تحت حديد الدبابة.

نظر جنود العدو من المشاة وراكبي الموتوسيكلات إلى ذلك المشهد وهم يقهقهون. وأطل سائقو الدبابات برؤوسهم وهم يصيحون ببعض الكلمات ويلوحون بأياديهم في استحسان. مرة أخرى رتبوا صفوفنا وحادوا بنا عن الطريق لنواصل السير. يا لها من فكاة حقاً؟! لم أحاول الهرب لا في مساء ذلك اليوم، ولا في الليل أيضاً. كنت أعرف أنني لن أوفق بسبب الإنهاك وما فقدته من دماء، فضلاً عن تشديد الحراسة علينا. ولكني، لعنت نفسي مراراً فيما بعد لأنني لم أحاول الهرب في تلك الليلة.

في الصباح قادونا عبر إحدى القرى المحتلة، وتقاطر جنود العدو من كل ناحية ليتفرجوا علينا. وأرغمتنا قوات الحراسة على الركض، لكي يشاهدنا الجميع على امتداد الطريق بالقرية. واستهدفوا بذلك تحقيرنا أمام زملائهم. كنا نعدو، والرصاص من خلفنا يلاحق من يسقط من الإعياء أو يتخلف قليلاً.

وعند حلول المساء كنا قد بلغنا. أخيراً. معسكر الأسرى المخصص للعسكريين. كان المكان في الأصل مجرد "جراج" كبير للعربات والجرارات، فأحاطه جنود العدو بالأسلاك الشائكة الكثيفة. ووقفنا جميعاً في فناء "الجراج" كتفاً إلى كتف. سلمونا لحراس المعسكر، فأخذ هؤلاء بدورهم يدفعوننا بمؤخرات البنادق إلى داخل الحوش. ولو قلت لكم إن ذلك الحوش هو الجحيم بعينه، أكون كأني لم أقل شيئاً: لم تكن تتوفر به دورات مياه، فكنا نبول ونتبرز حيثما أمكن، في كل الأركان، وفيه كنا ننام وسط وساخة الطين ذي الرائحة النتنة، وفيه كنا نقف صفوفاً حين يأمرنا بذلك. وكانوا يصرفون لنا الطعام والماء مرة واحدة في اليوم، حفنة من الجريش النييء أو بذور عباد الشمس المتعفن مع قذح واحد من الماء، لا أكثر. وفي بعض الأيام كانوا ببساطة ينسون صرف الطعام لنا. بعد يومين من إقامتي في المعسكر انهمرت الأمطار بغزارة، فذابت الأوساخ المتجمدة بأرض الحوش حتى أننا كنا نخوض فيها إلى الركب. وفي صباح اليوم التالي أخذ

البخار يتصاعد من أجسام الرجال المبلولة كأنه البخار المتصاعد من أبدان الخيول.. وتساقتت الأمطار بلا توقف ليلة بعد الأخرى، وفي كل ليلة كان يموت منا عشرات الرجال الذين أنهكهم الضعف وسوء التغذية.

فى ذلك الحوش، وفى تلك الظروف، اشتدت علىّ آلام كتفى ورأسى، وتضاعفت فى اليوم السادس، وأخذت جراحى فى التقيح، ثم صارت رائحة كريهة لا تطاق تتبعث منها.

فى صباح اليوم التالى، توجهت إلى ضابط الصف المسئول عن حراستنا ورجوته أن يأذن لى بالذهاب إلى الطبيب، وكان الضابط يتقن اللغة الروسية. قال لى: "اذهب إلى طبيبك أيها الروسى، وسيسعفك فى الحال". ولم أدرك ما ينطوى عليه كلامه من سخرية إلا فيما بعد، حين سألت عن الطبيب فقالوا لى إنه فى اسطبلات الخيول مع الجرحى المصابين بشدة. ومضيت إلى تلك الاسطبلات التى تقع قرب المعسكر، وكانت فيما مضى تابعة للمزارع التعاونية.

عند مدخل الاسطبلات التقيت بالطبيب، كان ضابطاً برتبة صغيرة، نحيفاً من شدة التعب، يكاد يجن مما حوله ومما عاناه شخصياً، فبدأ لى أنه على حافة الموت والانهيار. كان الجرحى يرقدون على فرش من السبخ وهم على وشك الاختناق من الرائحة النتنة غير المحتملة التى عبأت الاسطبل. ورأيت كيف كانت الديدان تسرح وتشغى فى جروح معظمهم، على حين كان القادرون منهم ينترون الديدان من جراحتهم بأظافرهم أو بعيدها صغيرة. وفى ركن من الأركان رأيت كومة من جثث الموتى لم يسعف الوقت أحداً لنقلها خارج الاسطبل.

التفت إلىّ الطبيب متسائلاً: "كيف أساعدك؟ بم أسعفك؟ ليس لدى ضمادة واحدة، بل وليس لدى أى شىء على الإطلاق. أستحلفك بالله أن تتصرف من هنا. وإذا شئت نصيحتى فمزق ضمادتك ورش على جرحك قليلاً من الرماد.. سيساعدك ذلك. عند المدخل ستجد الرماد الطازج".

فعلت ما نصح به الطبيب. وعند انصرافى، قابلنى عند المدخل، الضابط الألماني، واتسعت بسمته وهو يقول لى: "هيه.. كيف حالك؟ لديك طبيب ممتاز.. لا شك أنه أسعفك؟". وقررت أن أتأشاه، فسرت بجانبه صامتاً، لكنه لطمنى على وجهى بقبضته وصاح بى: "ألا تود أن ترد علىّ أيها الخنزير؟". وهويت واقعاً على الأرض وهو ينهال علىّ ضرباً بأقدامه فى رأسى وصدرى.. واستمر يضربنى مدة طويلة حتى نهضت واقفاً على قدمى، فكف.

لن أنسى ما حيينت ذلك الضابط النازى، أبداً لن أنساه. فقد تكرر ضربه لى بعد ذلك أكثر من مرة، إذ كان يأمرنى بالخروج إليه حين يلحنى عبر الأسلاك الشائكة، فأذهب إليه وهناك يشرع فى ضربى بكل قوته فى صمت وتركيز. وقد تتساءلون "كيف ظللت على قيد الحياة بعد كل ذلك؟". وأقول لكم إننى. قبل الحرب. وقبل أن أعمل بالمصنع اشتغلت حمالاً، أساعد فى تفريغ المراكب عند شاطئ نهر "كامى"، وكان بوسعى حينذاك أن أحمل جوالين من الملح، زنة الواحد منهما مائة كيلو جرام. صدقونى. كنت مفعماً بقوة هائلة وكان بنائى الجسمانى متيناً.

ولكن بقائى على قيد الحياة لا يعود إلى ذلك أساساً، بل إلى تصميمى على الحياة، وإلى إرادة المقاومة التى لم تتخل عنى لحظة. كنت مشحوناً بالعزم على العودة إلى صفوف المقاتلين دفاعاً عن بلدنا لكى آخذ بثأرى من العدو وأقاتله حتى الرمق الأخير.

فيما بعد نقلونى من ذلك المعسكر . ولم يكن إلا مركزاً لتوزيع الأسرى . إلى معسكر آخر يبعد عن الأول بحوالى مائة كيلو متر، أحاطته . مثلما فى المعسكر القديم . الأعمدة العالية التى تضرب مع الأسلاك الشائكة سوراً حول المكان الذى لا سقف له. وكانوا يصرفون لنا الطعام على نفس النظام القديم، مع فارق واحد هو أنهم فيما ندر كانوا يقدمون لنا قديماً من الحبوب المتعفنة بدلاً من الجريش النوى، أو يجرجرون إلى المعسكر الخيول النافقة ويتركون للأسرى تقسيمها فيما بينهم. وكنا نأكل تلك الجيفة لكى لا نموت من الجوع، ومع ذلك كانت المئات منا تموت بسبب ذلك الطعام.

حل شهر أكتوبر ببرد قارس فوق التصور، وتساقطت الأمطار بلا توقف، وامتد الصقيع يغطى الأرض كل صباح. ولم يساعدنى فى ذلك البرد حتى القميص ومعطف الجندي الذى نزعته عن أحد زملايى الذين ماتوا. وكنا قد اعتدنا على الجوع، بينما سمعت أبدان جنود الحراسة بما كانوا يسرقونه، فتشابها كأنهم من قالب واحد: فرقة منتخبة من الأندال والسفلة. وفى صباح أحد الأيام، اقترب واحد منهم من الأسلاك الشائكة وذاع علينا بواسطة المترجم:

. سنقوم الآن بتوزيع الطعام، التوزيع سيجرى عند الناحية اليسرى. انصرف بعد ذلك. وظللنا واقفين ننتظر الطعام ساعة، ساعتين، ثلاثاً. مئات من الهياكل العظمية الحية واقفة ترتجف فى مهب الريح فى انتظار الطعام. وفجأة عند الناحية اليمنى من الأسوار الشائكة . لا اليسرى كما قالوا . ظهر بعض الجنود وألقوا عبر الأسلاك بقطع من لحم الخيل الفاسد. واندفعت الجموع التى عضها الجوع الوحشى إلى الناحية الأخرى حيث قطع اللحم الملوثة بطين الأرض. وقهقه الحراس ملء أفواههم للحظة، ثم دوت بحدة طلقات المدافع الرشاشة متصلة لا تنقطع، وعلا صوت الصراخ والأنين من بين الأسرى المتساقطين وهرع من لم تصبه الطلقات إلى الناحية الأخرى من السور، تاركين من خلفنا على الأرض زملاءنا من الجرحى والموتى.

بعد لحظات دنا من السور الضابط المسئول عن المعسكر وبرفته المترجم. وأمسك الضابط نفسه عن الضحك وقال: "عند توزيع الطعام، أثار بعضكم فوضى تدعو للاستياء. وإذا تكررت ذلك مرة أخرى، سأعطى الأمر بإطلاق النار عليكم بلا رحمة أيها الروس الخنازير. والآن نظفوا المكان من القتلى والجرحى".

وأغرق الجنود الواقفون خلف الضابط فى الضحك . لقد سرتهم نزوة الضابط الطريفة التى روح بها عنهم.

وأخذنا فى صمت نجرجر موتانا إلى خارج المعسكر، ثم قمنا بدفنهم فى مكان غير بعيد فى الوادى.

\*\*\*

كانت جراحى قد التأمّت، لكنها عادت فانفتحت من جديد بسبب الرطوبة الدائمة والضرب، وكانوا يضربوننا بقبضاتهم وبالعصى ومؤخرات البنادق، وكانوا يضربوننا هكذا بلا سبب محدد، لمجرد دفع السأم عن أنفسهم. وكنا ننام على الوسخ مباشرة من دون المراتب المحشوة بالقش، نتكدس فى كومة متلاصقة ونتجمد من البرد: الراقدون تحت فى الوحل، والراقدون فوقهم.. لم يكن نوماً وإنما عذاب لا يحتمله البشر فى الليل الممتد. وبالرغم من كل ذلك، كنت حياً، وبقيت على قيد الحياة.

ومرت الأيام على هذه الحال، كأنها حلم ثقيل ومرهق. ومع انقضاء كل يوم كان ضعفى يتزايد حتى أصبح بوسع أى طفل صغير أن يطرحنى أرضاً بدفعة واحدة. كنت فى بعض اللحظات أنظر فزعاً إلى نراعى النحيفتين المكسوتين بطبقة رقيقة للغاية من الجلد، وأتساءل: "كيف يمكنى الهروب وأنا على هذه الحال؟". ولعنت نفسى فى تلك اللحظات لأننى لم أحاول أن أهرب فى الأيام الأولى. ألم يكن قتلى أثناء الهرب أهون من هذا العذاب البشع الذى أحياء؟

حل الشتاء، وكسحنا بين الثلوج مكاناً ننام فيه على الأرض المتجمدة من البرد. وفى الشتاء أخذ عددنا يتناقص باستمرار، حتى حل يوم أعلنت فيه إدارة المعسكر أنها خلال أيام معدودة سترسل الأسرى إلى مناطق يعملون بها. ودبت الحياة فى الجميع، واستيقظ الأمل فى صدر كل منا، أمل ضعيف حقاً، لكنه الأمل فى أن تلوح فرصة للهرب والنجاة من هذا الجحيم. وساد الهدوء فى تلك الليلة، هدوء غريب، وكان الجو بارداً. عند حلول الفجر تنهأ إلى أسماعنا صوت صفير المدافع، وبدأ الأسرى من حولى يلقون. وحين تكرر الصفير مرة أخرى صاح أحدنا بصوت مرتفع: "إنهم رجالنا. أيها الزملاء.. رجالنا يهاجمون!". وحينذاك نهض كل أسير واقفاً، كأنما وحدهم أمر عسكري، نهض الذين عجزوا عن الوقوف لأيام متتالية. كان ذلك شيئاً يفوق التصور، وترددت وشوشات وهمس حار ونحيب مكتوم، وبكى أحد الواقفين إلى جوارى بصوت نحيف كنهنة النساء. وانحدرت الدموع على وجنتى أنا الآخر من شدة انفعالى وشعورى بأن أهلنا قريبون منا.. انحدرت دموعى وتجمدت فى الهواء البارد. وشرع أحدنا ينشد بصوت واهن نشيد بلادنا، وتبعته أصواتنا الخافتة، المتحشجة. فتح الحراس نيران مدافعهم وبنادقهم علينا، ودوى الأمر الكريه: "انبطحوا". ورقدت ضاغطاً جسمى فى الثلوج وأنا أبكى مثل الطفل. لم تكن دموعى تعبيراً عن سعادتى فحسب، بل وعن اعتزازى وفخرى بشعبنا. حقاً كان بوسع النازية أن تقتلنا ونحن عزل منهكين من الجوع والعذاب، وكان بوسعها أن تسومونا أصناف

العذاب، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على أرواحنا أو كسرهما، ولن يتمكنوا من ذلك أبداً. لقد أخطأوا الهدف.. فنحن شعب لا يعرف الاستسلام.

\*\*\*

فى تلك الليلة، لم أتمكن من الاستماع إلى قصة "جيراسيموف" حتى نهايتها. فقد استدعوه إلى هيئة الأركان على وجه السرعة. ولكننا التقينا مرة أخرى بعد أيام.

فاحت فى الخندق رائحة عفن وسائل "الراتينج" الذى تفرزه أشجار الصنوبر. جلس "جيراسيموف" على دكة وقد أحنى صدره إلى الأمام وعقد يديه العظمتين الضخمتين فوق ركبتيه وقد تشابكت أصابعه. وتطلعت إليه، وتصورت أنه يجلس هناك فى معسكر الأسرى، وأنه هناك بالتحديد قد اعتاد هذه الجلسة صامتاً وسارحاً فى أفكاره المضنية بلا نتيجة.

. تسألنى كيف تمكنت من الهروب؟ سأقول لك. فى تلك الليلة بعد أن سمعنا صفير المدافع، نمنا، وفى صباح اليوم التالى أرسلونا للعمل فى بناء التحصينات الألمانية. وكانت الثلوج قد بدأت فى الذوبان، وتساقطت الأمطار. رتبونا فى صفوف وساقونا بعيداً عن المعسكر فى اتجاه الشمال. وتكررت اللوحة الكئيبة القديمة إذ أخذ المنهكون منا يتساقطون فى الطريق فيلاحقهم رصاص جنود العدو. بل إن أحد الضباط أطلق النار على أحدنا لا لشيء، إلا لأنه انحنى أثناء سيرنا والتقط حبة بطاطس متجمدة من الحقل الذى كنا نعبه. كان اسمه "جونتشار"، من أوكرانيا كل جريمته أنه التقط حبة البطاطس اللعينة تلك، وأراد إخفاءها. ولاحظه الضابط الألمانى فاتجه نحوه دون أن ينبس بحرف، وأطلق النار عليه من الخلف. وأوقفوا الطابور وأعادوا ترتيبه. وصاح بنا الضابط "فالتعلموا أن كل ما تقع عليه أعينكم هنا ملك للدولة الألمانية، وسيقتل على الفور كل من تسول له نفسه أن يمد يده إلى شيء".

مر طريقنا بعد ذلك عبر إحدى القرى، وما أن رأيت النسوة طابور الأسرى المنهكين حتى شرعن يلقين لنا قطع الخبز وحببات البطاطس المسلوقة، وأسعف الوقت أحدنا فالتقط من الأرض ما ألقته النسوة، ولم يلحق الآخرون بذلك. وفتح الحراس نيران مدافعهم على شبابيك البيوت وأمرونا أن نسرع الخطو. لكن الصبيان لا يهابون شيئاً، وهكذا أسرعوا أمامنا، يسبقوننا، وينتظروننا عند البيوت الأبعد فى الطريق. وهناك تركوا لنا على الأرض كسر الخبز، فكنا نلتقطها بسرعة أثناء سيرنا. وكانت حبة بطاطس كبيرة مسلوقة من نصيبى فاقسمتها مع زميلى الذى مشى إلى جوارى، والتهم كل منا حصته بقشرتها. ولعلى لم أكل فى حياتى كلها شيئاً أشهى من حبة البطاطس تلك.

أخيراً، بلغنا إحدى الغابات، وهناك كان علينا أن نبني التحصينات للعدو. وضاعف جيش العدو حراسته بشكل ملحوظ، وأعطوا كل منا معولاً لنبداً العمل. وتمنيت لو استطعت أن أهدم ما حولي بدلاً من استكمال البناء في التحصينات لأعدائنا.

في ذلك اليوم، مع حلول المساء كنت قد عقدت العزم على الهروب. طلعت من الحفرة التي كنت أشتغل بها والمعول بيدي اليسرى، وبنوت من الحارس الذي وقف قربي.. وكان الباقيون يقفون عند أهدود بعيد، ولم يكن بالقرب مني أحد سوى ذلك الحارس. اقتربت منه وأنا أغمغم: "لقد انكسر المعول. انظر..". ولمع في ذهني للحظة، أنه إذا لم تكفني قوتي لإسقاطه من أول ضربة فإنه سيقطنني لا محالة. وأغلب الظن أن الحارس لاحظ شيئاً غريباً في التعبير المرتسم على وجهي لأنه هز كتفه، وشرع يخلع حزام مدفعه المعلق إلى كتفه، وأسرت فهوريت بمعولي على وجهه، ووجدته يهوى منطرحاً على ظهره دون أن يند عنه صوت. لقد أسعفتني قوتي رغم كل شيء. وأصبح في حوزتي مدفع، وثلاثة شرائط من الذخيرة. وصرت أعدو، وأعدو، دون أن ألتفت إلى الخلف، حتى اكتشفت أنني لم أعد قادراً على الجري، لقد استنفدت كل قواي. حينذاك توقفت والتقطت أنفاسي ومن جديد أخذت بالكاد أهرو، والغابة تزداد كثافة من حولي كلما ابتعدت عن الوادي. لا أذكر كم من المرات وقعت ونهضت من جديد، ولكني مع كل دقيقة كانت تمر، كنت أصبح أبعد فأبعد وأنا أشهق وأكاد أختنق من التعب. أخيراً اخترقت الدغل الكثيف وبلغت الجانب الآخر من التل، وحينذاك فقط أخذت تتردد من بعيد أصوات طلقات المدافع الرشاشة متلاحقة وأصوات صياح جنود العدو، غير أن اللحاق بي كان قد أصبح صعباً.

أخذ بياض الفجر يخالط ظلمة آخر الليل في السماء، وعلى الرغم من ذلك فقد احتطت واحتفظت لنفسى بطلقة أخيرة في حالة إذا ما وقع العدو على أثنى ولاحقني. وأنعشتني هذه الفكرة: لن أصبح أسيراً عندهم حياً أو ميتاً. وواصلت سيرى وأنا أكثر هدوءاً وحذراً. وقضيت ليلتي تلك في الغابة، على الرغم من أن إحدى القرى لاحت لي على بعد نصف كيلو متر، لكنني خفت أن اتجه إليها فأقع في يد الألمان.

في اليوم التالي، عثر الفدائيون من رجالنا على. وقضيت معهم أسبوعين في خندق تحت الأرض حتى استعدت قوتي، وتحسنت صحتي. وقد عاملني الفدائيون في بادئ الأمر بحذر وريبة، رغم أنني عرضت عليهم بطاقتي الحزبية، وفيما بعد حين بدأت أقوم معهم بالعمليات الفدائية تبديت فكرتهم عني. وشرعت. في الغابات وبين الأحرش. أحصى عدد من صرعتهم من جنود العدو، ومازلت أوصل ذلك حتى الآن، وقد أوشك الرقم على أن يصبح مائة.. نعم.. مائة قتيل من أعداء بلادي.

في شهر يناير، قام زملائي من الفدائيين بنقلي إلى الخطوط الخلفية. هناك مكثت شهراً في المستشفى العسكري، فأخرجوا الشظية من كتفي، أما الروماتيزم وبقية الأمراض الأخرى التي أصابتنني في المعسكر فسأعالج منها بعد أن تنتهي الحرب. بعد العلاج أعطوني إجازة أسبوعاً للنقاهة، قالوا لي: "اذهب فاسترح في بيتك قليلاً". وقد فعلت. لكنني لم أتحمل البقاء بين أهلي



أكثر من أسبوع واحد. إذ أرقنتى الرغبة فى العودة إلى الجبهة. نعم. ولا شك أن وجود الإنسان فى بيته ووسط أهله أمر إنسانى، لكنى كنت أحس طيلة الوقت أننى أفتقد نفسى ومكانى الحقيقى هنا فى الجبهة وإلى النهاية.

\*\*\*

ودعت "جيراسيموف" عند مدخل الخندق. وتطلع هو إلى الممر الممتد فى الغابة غارقاً فى أشعة الشمس، وقال بترو: "لقد تعلمت أن القتال والحرب بالمعنى الصحيح هى: الحب والكراهية. إن الحرب محك من نوع خاص، فهى تشحذ كل مشاعر الإنسان وتجعلها رهيفة إلى أقصى حد. قد يبدو من الغريب أن يجتمع الحب والكراهية معاً، خاصة أن المثل السائر يقول: "عبثاً تشد الحصان والوعل الهياب إلى عربة واحدة"، لكننا شددنا هذين الشعورين المتنافرين إلى عربة الحرب، بل إنهما يدفعان بالعربة إلى الأمام على أفضل وجه. أنا لا أطيق جنود النازية لكل ما اقترفوه فى حق بلادى، وفى حقى شخصياً. لكنى فى نفس الوقت أحب وطنى من أعماق فؤادى، وأكره أن أرى بلدى تحت وطأة الاحتلال. وهذا ما يدفعنا جميعاً إلى خوض المعارك بعنف شديد. إن هذين الشعورين يتجسدان فى عملنا وهما اللذان سيقودانا إلى النصر. إننا نعشق بلادنا، ونحمل كراهيتنا على أطراف حرابنا. عذراً إذا بدت كلماتى معقدة أو بليغة. لكنى أفكر على هذا النحو.

أنهى الملازم "جيراسيموف" حديثه، وابتسم، للمرة الأولى منذ تعارفنا، بسمة بسيطة وقريبة للقلب مثل بسمة الأولاد.

\*\*\*

## الأمنية

. ماما.. انظرى.. رجل هناك أخرج لى لسانه.

. لا تهتمى به، الأرجح أنه يمازحك.

. لكن ها هو يخرج لى لسانه مرة أخرى.

. دعيه يفعل ما يشاء ولا تتظري ناحيته.

. أوه يا ماما.. إنه يتطلع نحوى الآن.. وسيخرج لكِ أنتِ أيضاً لسانه!

. بس يا بنت أنت كل كلامك اختلاق.

. لكنه يتقدم نحونا يا ماما!

. أين هو؟ مَنْ مِنْ هؤلاء؟

. هذا هو.

. أوه! كوستيا! يا لها من مفاجأة!

. مرحباً.. أ.. أنا.. أهلاً، إني أنظر إليكِ فأتحير: أهو أنتِ؟ أم أخرى تشبهك تماماً؟

. فعلاً يا كوستيا مفاجأة مذهلة، كأن ثلجاً سقط على رأسى.

. أرايت يا ماما؟ وأنت قلت أنى اخترع من دماغى، وأن كل كلامى اختلاق.

. أهلاً يا كوستيا.

. إن نظرى . على أية حال . لم يخطئك يا مدام.

. مدام؟! لم تخاطبنى بشكل رسمى يا كوستيا؟

. آ.. لا.. فقط.. سهواً.. لقد استطعت أن أميزك، تغيرت فقط تسريحة شعرك ولونه.

. ماما.. كان شعرك أشقر.. والآن كستنائى.. مضبوط؟

. وأنا أيضاً أذكر أن شعرك كان أشقر يا مدام.. آسف.. قصدى أنك كنت شقراء.

. نعم. وقتها لم يكن أحد يثق فى أن ذلك هو اللون الطبيعى لشعرى. كانوا يقولون لى: "هذه

صبغة!" والآن وقد صبغت شعرى بالفعل فلا أحد يخامرهم الشك فى أن هذا هو اللون الطبيعى..

كم من الأعوام مرت ولم نلتق يا كوستيا؟ كم.. يا كوستيا؟

. منذ اثنى عشر عاماً، أو على الأرجح أربعة عشر.

. عمى.. وأنا قريباً سأتم الست سنوات.

. لن تتميها بهذه السرعة.. سوف تبلغين السادسة، لكن بعد عام كامل!

. طفلتك مستعجلة.

. أنت كذلك يا كوستيا تستعجل الزمن. فقد مرت تسع سنوات لم نر فيها بعضنا البعض، وإذا أردت الدقة، فقد مضت تسع سنوات وشهران ونحن لا نلتقى.. لكن لم يمر بعد، لا اثنا عشر عاماً ولا أربعة عشر، لكنك كنت هكذا دائماً.. مستعجلاً..

. ربما.. محتمل أنكِ على حق.. بالفعل إنها تقريباً.. تسع سنوات وشهران..

- بالضبط. فقد حسبتها بالدقة ذات يوم.. بل بصراحة.. غالباً ما كنت أحسب تلك الأيام وهي تمر. نعم.. تسعة أعوام وشهران.

. ماما.. متى يصبح عمري تسع سنوات وشهران؟

. بعد أربع سنوات، وبعد ذلك ستبلغين سنى.

. وكم عمرك يا ماما؟

. كثير.

. كم؟ مائة سنة؟

. لم أبلغ المائة بعد. أصغر شوية صغيرة، عمري سبع وعشرون سنة.

. وما رأيك يا لينا أننى حين أتطلع إليك الآن، يخيل إلى أن شيئاً لم يتبدل فيك؟

. يخيل إليك فقط. على أية حال شكراً لك على المجاملة.

. وما اسم طفلتك؟

. ناستيا.. هل تذكر يا كوستيا.. كنت تقول لى حينذاك إن "ناستيا" هو أجمل اسم فى العالم.

بل وكنت تتحسر لأن اسمى "لينا" وليس "ناستيا".

. حقاً؟

. كثيراً ما رددت ذلك، وحينما أنجبت، سميت طفلي "ناستيا"، وها هي تقف أمامك بنتاً غير مطيعة تحمل "عروسة" على يدها.

. عمى.. هذه "العروسة" هي ابنتي، واسمها "كاتيا" لأن كل العرائس على اسم "كاتيا"..

. أفهم من ذلك أنكِ صرتِ جدة يا لينا؟

. نعم. صرتِ جدة. وأنتِ يا كوستيا هل صرتِ أباً لصبي يا ترى أم لبنت؟

. لا صبي، ولا بنت، بل أنى لست متزوجاً.. الحقيقة كنت..

. كوستيا.. يا له من اسم.. كوستيا.. كوستيا!

. ماذا.. تكلمى يا لينا؟

. لا شىء.. ببساطة كنت أقلعت عن هذا الاسم. "كوستيا".. أقلعت عنه..

. ماما.. "عروستى" انقطعت رجلها.

. لا تضيّعها.. هاتى أضعها أحسن فى حقيبة يدي، وحين نصل إلى البيت سأصلحها لكِ.

. لينا.. أردت أن أسألك..

. ماذا؟ أسأل.

. هل تذكرين، عندما سافرنا معاً.. أظن أننا كنا سافرنا إلى مدينة "تساريتسينا"، أم أننا سافرنا حينذاك إلى "كراتوفا"؟

. "تساريتسينا".

. ذاكرتك قوية. فى مساء ذلك اليوم، وكانت الدنيا قد أعتمت، جرينا معاً إلى محطة القطار.

. مازلت تذكر على أية حال يا كوستيا، ساعتها كنت أنت مستعجلاً جداً.

. نعم. كنت ذاهباً إلى البيت.

. وأنا وقتها كنت أعيش فى بيت الطالبات.

. خشيت أن اتأخر فتقلق أمى علىّ.

. كان بوسعك أن تتصل بها تليفونياً، هكذا فكرت أنا ساعتها، لكنى لم أقل لك ذلك. خجلت.

. بالفعل، كان بوسعى أن أتصل بها. لا أدري لماذا لم تخطر ببالي هذه الفكرة؟ ربما كانت هناك أسباب.

. ربما، يا كوستيا.. لا أدري.

. طيب.. الآن أريد أن أسألك عن شيء آخر. أتعرفين عن ماذا؟

. أحمن تقريباً.. فى ذلك المساء حلمت بأمنية واحدة وقلت لنفسى:

إذا لحقنا بالقطار قبل أن يتحرك من المحطة، فسوف تتحقق أمنيتى، أما إذا لم نلحق به.. فلن ترى أمنيتى النور. وقد ركضنا حينذاك إلى درجة ظننت معها أن قلبى سيتقطع بين ضلوعى.

. ولكن.. ألم نلحق بالقطار؟

. نعم، لحقنا به، لكن أمنيتى لم تتحقق!

. شيء مؤسف بالطبع. جميل لو أن الأمنية تحققت.

. جميل؟! أتقول هذا وأنت لا تدرى أية أمنية كانت؟

. بالفعل. ما الذى تمنيت حينذاك؟ هل مازلت تذكرين؟

. طبعاً مازلت أذكر، لكن هذا لا يعنى أى شيء الآن..

. ومع ذلك، أود لو أعرف.

. عمى أتعلم.. فى البيت يوجد عندنا بابا.

. دقائق وسوف نمضى إلى بيتنا يا حبيبتى.

. أرجوك أن تتكلمى.. ماذا تمنيت حينذاك؟

. الآن.. لم يعد ممكناً الكلام عن ذلك يا كوستيا.

. لماذا؟ لم لا ترغبين فى الحديث؟ أتخافين ألا أفهمك؟

. ما الذى يمكن أن يخيفنى الآن يا كوستيا؟ ماذا يمكن أن أخشى الآن؟

. إذن قولى لى .

. لا .

. لماذا؟

. لأنه لم يمر أحد عشر عاماً، ولا أربعة عشر، لكن تسع سنوات وشهران بالضبط، ولأننا حينذاك لم نسافر إلى "تساريتسينا" أو إلى "كراتوفا" بل سافرنا بالتحديد إلى "إيركوتسك"، كذلك لأننى صرت أماً لطفلة . لا داعى للشقاوة يا ناستيا . سنذهب حالياً، وكذلك لأنه يوجد "بابا" الآن، وهو ينتظرنا فى البيت.

. أفهم .. ومع ذلك أرجو أن تقولى لى .. ماذا تمنيت حينذاك؟

. "اكتتك" يا عمى .. مقطوع منها زرار .

. عارف .. شكراً يا "كاسيوشا".

. ليس اسمى "كاسيوشا" ..

. آسف .. غلطة لسان .

. صافحى عمك يا ناستيا، ودعيه، واضح أنه مستعجل .

. إطلاقاً . بل وليس هناك مكان أتعجل الذهاب إليه .

. ناستيا .. هيا قولى لعمك مع السلامة .

. مع السلامة يا عمى .

. لكن صدقيني .. حقيقة .. لست مستعجلاً .

. نعم، ولكن هناك من ينتظرنا فى البيت . مع السلامة يا كوستيا .

. لينا .. هل يمكن .. هل يمكن .. هل تسمحين لى أن أتصل بك؟ ما هو رقم تليفونك؟

. وما الداعى إلى ذلك؟

. ببساطة أود أن أتصل بك ..

. لماذا؟

. أنا نفسى لا أدري لماذا.. لكن ببساطة هكذا..

. لا.. لا داعى يا كوستيا.

. ماما.. أنتِ نسيت رقم التليفون؟ أنا أقدر أقوله.. "27380".. مضبوط؟

. ماذا؟ قوليه مرة أخرى، لم أسمعه جيداً.

. ولا داعى لسماعه. أتمنى لك كل خير يا كوستيا.

. لينا. وهل تذكرين.. لقد ذهبنا معاً حينذاك إلى معرض الفضاء. لا أعرف ما الذى دعانا

إلى ذلك حينها؟ لكنى أذكر أننا كنا معاً. هل تذكرين؟

. بالطبع. بل وأذكر السبب الذى دعانا حينذاك إلى الذهاب إلى المعرض.. ومع هذا فلم يعد

لكل ذلك معنى الآن.. مع السلامة.

. ماما.

. ماذا يا حبيبتي؟

. عمى.. يتابعنا بعينيه.

. لا تديرى وجهك نحوه

\*\*\*

## زهرة الجريس

ذات يوم فردت الطفلة بانيا ذراعيها وراحت تعبر جدول الماء فوق جذع شجرة يصل ما بين الصفتين. بعد ذلك امتدت الطريق منحنية إلى أسفل. شاهدت بانيا فى ذلك المنخفض أكمة من الشجيرات. من جديد ترتفع الطريق. عند الرابية العالية طالعت بانيا أشجار البتولا، وشاهدت الحقل القديم المهمل الممتد من خلف الأشجار ووسط الغابات.

قرب أشجار البتولا، كانت ثمار الفراولة الحلوة، وكانت قليلة حقاً.. لكن أمن المعقول أن تمر بانيا قربها ولا تتذوقها؟ كلا بالطبع. الفراولة أولاً، والحقل ثانياً، فهو باق ولن يجرى منها.

هكذا أخذت بانيا تتطلع إلى الحقل بعد أن أكلت من الفراولة، هذا الحقل الذى ظل يعيش وحده حيث نسيه الناس. نظرت إليه كان ممثلاً كله بزهور الجريس الزرقاء، النامية على هيئة أجراس تجعلك تتخيل أن لها رنيناً مسموعاً. يكفى أن ترى هذه الزهور الرائعة، مرة واحدة فلا تنساها إلى الأبد. تأملها، ولو مرة واحدة، ثم أغمض عينيك، ستراها فى الحال مشتعلة فى خيالك، زرقاء مثل الفوانيس أو النجوم. بل إن السماء ذاتها لا تضيئها كل تلك النجوم، ولا تكون فى جمال هذا الحقل. وأنت لو شاهدته فسوف لا يفارق أحلامك طوال الليل، وستصبغ زهراته الحلم بلونها الأزرق الخفيف، وسيكون حلمك مجنحاً دون شك. لعل السماء بنجومها هى التى تشبه هذا الحقل بزهوره.

أخذت بانيا تتأمل حقلها ذاك. وفجأة لمحت فيه جناحى طائر كبيرين، رقد أحدهما دون حراك كأنما هو مكسور، وانتصب الآخر بشكل عمودى. ولم يكن هذان الجناحان لطائر.. لكن لإنسان!

رجل جلس على الأرض، معتمداً على ذراعيه، وجهه شاحب كأنه يعانى من الألم. كان يتطلع نحو السماء. لم تكن فيها سحابة واحدة أو أى شىء يستحق الرؤية.

ساور الشك بانيا، ترى هل ذلك الكائن إنسان أم لا؟ وسرعان ما فطنت إلى أنه إنسان بالفعل. إن له وجهاً بشرياً. لكن من يعرف؟ ربما فى مكان ما توجد طيور ذات وجوه بشرية. إنها تذكر مكنة الحياكة الملقاة فى المخزن العلوى فى بيت جدتها. ألم يكن مرسوماً عليها طائر ذو وجه بشرى؟ نعم. لكن لهذا الطائر الجالس فى الحقل ذراعين أيضاً. له جناحان.. و.. ذراعان، وبالإضافة إلى ذلك فهو قادر على الكلام لأنه حين رأى بانيا شرع يئن ثم قال لها:

. لا تخافى لقد التوى جناحى. اقتربى منى.

كان يمكن لبانيا أن تجرى هاربة، لكنها اقتربت منه وسألته:

. ماذا بك؟ هل أصبت برضوض؟

أجاب الإنسان الطائر:

. ساقى.

قالت بانيا مشيرة إلى الجناح:

. و.. وهذا؟



خافت بانيا أن تطلق على الجناح.. كلمة جناح، بل وحتى حين صارت قريبة من الرجل فإنها لم تنظر مرة واحدة صوب جناحه. نعم.. أليس تأمل عاهات الآخرين عيباً؟

قال الرجل:

- كذلك التوى جناحي، لست أفهم كيف حدث هذا. كنت أطيّر بصورة رائعة، وفجأة كأن طائراً ضرينى. لم أتبينه بوضوح، لكن يخيل إليّ أنه طائر رمادى ضخّم. أدارنى من شدة الضربة، فتعلقت بالسماء، وألقى بى على الشجر، فوجدت نفسى هنا.

سألت بانيا وهى تنظر إلى وجهه:

. هل أحضر إليك حليياً؟

نظرت فقط إلى وجهه، ورقبته ذات التجاعيد، لأن جسمه لم يكن يشبه جسم الإنسان، كانت بقية جسمه كأنما مصبوبة فى رداء رياضى. لكن من الريش. مشدودة بشرائط من المطاط.

سألته بانيا:

. من أنت؟

وبدا الإنسان الطائر وكأن الدهشة استولت عليه وقال:

. من أنا؟ ألا ترين من أنا؟

صاحت بانيا:

- كلا. أنا لا أقصد هذا. ربما ليس من حقى أن أكلمك عن هذا، لكن أنا أقصد هل أنت

طيب القلب أم لا؟

أجابها دون أن يبتسم:

. طيب القلب.

. آه!

اطمأنت بانيا وانتحت ركناً على العشب جلست عليه. ها هى قد عرفت أن الرجل الطائر

طيب القلب ولذلك تجرأت قائلة:

. جئت إلى هنا أبحث عن زهرة الجريس ذات السبعة أوراق .

. ذات السبعة أوراق؟

. نعم. انظر حولك.. ستجد أن لكل زهرة جريس خمس أوراق فقط، لكن هذه الزهرة توجد أحياناً نادرة بست أوراق، ونادراً جداً بسبع أوراق.

تحرك الرجل مهتزازاً قليلاً، ثم بسط ذراعه، وفي نفس اللحظة بان من خلف ظهره جناح ضخم وجبار يتمايل بريش أزرق اللون. صاح الرجل وهو يقتطف زهرة من الحقل:

. ها هي الزهرة السباعية.. خذها.

اندهشت بانيا وقالت:

- نعم. إنها هي! أنت إذاً طيب القلب حقاً، لقد عثرت عليها فوراً.. هـ.. هل أتى إليك بحليب؟

قال الرجل الطائر:

. لا. شكراً لك. فقط قولي لي ما اسمك؟

. اسمي بانيا.

- هل من الصعب أن أصل إلى الغابة بساقي العرجاء هذه؟ أتعرفين.. أخشى أن يتعضن جناحي هنا.. آه لو استطعت أن تحضري لي عصا جيدة، ولو كانت عوداً من الخشب مثل هذا كي أنهض معتمداً عليها.

قالت بانيا:

. لكن أليس من الأفضل أن أصنع لك كوخاً من الخوص تبقى فيه هنا؟ أنا أستطيع ذلك وفي الكوخ سوف لا يبيلك أى مطر. أما الطعام فسأحمله إليك، فأنا التي أحلب بقرتنا. أليس البقاء هنا أحسن؟ على أرضنا؟ لا تخف من شيء.. ألم تر أبدأ حقلًا مثل هذا؟

. كلا. إنه بالفعل حقل جميل.

قالت بانيا:

. قديماً كان الناس يزرعونه. الآن أهملوه لأنه في مكان بعيد. أتعرف.. لو كنت أنا صاحبة الأمر، لأخذتك معي إلى بيتي. إن ماما طيبة جداً. ولن تخاف منك، أما بابا فقد سافر إلى "تايمير".

سرح الرجل الطائر بفكره فى شىء ما. انتفضت بانيا قائلة:

- آه.. لا تظن أنى ثرثارة.. لن أقص على أحد أى شىء، وحتى ماما، رغم أننا صديقتان  
هى تقول لى كل أسرارها، وأنا كذلك، لكنى لن أحكى لها عنك. أو سأحكى لها فيما بعد حينما  
يشفى جناحك تماماً.

قال الإنسان الطائر:

. حقاً، كل شىء جميل فى هذا الحقل، وأنا واثق أنك ما كنت لتتركينى وحدى هنا. كنت  
أحب لو بقيت هنا، لكنهم سيبحثون عنى.

. آه!

اومأت بانيا برأسها علامة الفهم ثم قالت:

- بالطبع، لو أن الكثيرين يطيطرون مثلك، فلا بد من أن يراهم البعض. حينئذ سيكتبون عن  
ذلك فى الجرائد.

ونهضت بانيا وهى تقول:

. سأتى إليك بعضاً من شجر البتولا. وما أن تفوهت بكلماتها تلك، حتى أسرعرت إلى الغابة،  
وهناك شرعت تبحث عن عصا محنية الرأس، حتى يستطيع الرجل أن يتوكأ عليها. عصا لا  
تكون جافة فتتكسر، مناسبة ليست قصيرة ولا طويلة. بحثت عنها حتى وجدتها بالمقاس  
المطلوب. اعتمد عليها الرجل ونهض. ورأته بانيا للمرة الأولى واقفاً. كان طويلاً، سماوى اللون،  
مصعراً الخد. من خلف ظهره بدا جناحاه وبلغا الأرض بريشهما الأزرق الطويل، كان أحدهما  
منتصباً والآخر مدلى.

أصاب الفزع بانيا فسألته:

. هل يؤلمك جناحك؟

. ساقاى هى التى تؤلمنى..

. ربما تورمت، كان لابد من لفها.

. لا شىء لدى ألفها به.

. سأتى أنا بشىء ما. وجرت بانيا مسرعة .

صاح بها الإنسان الطائر :

. انتظري.. انتظري.

. سأجد شيئاً ما فى غمضة عين. وبالفعل لم تستغرق بانيا سوى لحظة، استدارت فيها هنا وهناك باحثة عما يصلح للف ساق الرجل، وإذا به قد اختفى من الحقل. وفكرت بانيا "ربما كان بين زهرات الجريس، أو خلف الأعشاب العالية". ودارت كالنحلة فى الحقل تبحث عن الإنسان الطائر، لكنها لم تجده. ولم تكن تعرف كيف.. أو بماذا تتاديه؟

وخرت بانيا راقدة على الأعشاب وهى تبكى. بكت وقتاً طويلاً حتى أراحها البكاء وخففت الدموع من حزنها، فاستغرقت فى النوم.

بحثت الشمس حتى عثرت بأشعتها على بانيا، وأدأتها، ثم حان وقت مغيب الشمس فغربت. واستيقظت بانيا من نومها، وإذا الدنيا ليل من حولها. استولت عليها رعدة مفاجئة. الليل! قفزت وأخذت تجرى صوب البيت، إلا أنها توقفت عند أشجار البتولا على الطريق، توقفت واستدارت نحو الحقل ونادت بصوت خافت:

. هيه!

لم يرد أحد على ندائها الخافت الرقيق. وفى هذه اللحظة شاهدت بانيا نجمة تطير فى السماء لم تر مثلها من قبل، نجمة زرقاء كبيرة، اشتعلت مثل الأنوار البنغالية. راح الشرر يتساقط منها، لكنها لم تتطفئ، وظلت طائرة مدة طويلة.

كان من الممكن لبانيا فى تلك اللحظة أن تضمر فى نفسها الكثير من الأمنيات التى تريد لها أن تتحقق، لكنها لم تفكر فى ذلك ولم تعبأ به، فقد استولت عليها نشوة وهى تفكر: "لقد حلق وطار.. على الرغم من كل شىء طار". واعتقدت بانيا أن تلك النجمة هى الرجل الطائر. نعم.. ومن الذى يستطيع أن يخلق هكذا؟ النجوم؟ كلا. لأن النجوم إذا انفلتت من السماء تحترق على الفور. إنه هو. نعم. هو فقط.

## الفهرس

5	تقديم
9	. رائحة الخبز يورى كازاكوف
17	. كان بكاؤك فى اللحم مريراً يورى كازاكوف
47	. أوليا أندريه بلاتونوف
59	. الألوان ألكسى ريميزوف
67	. السفر يورى تيريفنيف
73	. مزمور ميخائيل بلجاكوف
83	. الفاجعة فاسيلى شوكتشين
93	. هواجس فاسيلى شوكتشين
105	. غليون الجندى إيليا إيرنبورج

- 115 . لقاء عابر قنسطنطين باوستوفسكى
- 123 . مساهمة مشكورة إيفان بونين
- 131 . سرقة ميخائيل زوشنكو
- 137 . الكراهية ميخائيل شولوخوف
- 137 . الأمنية ياكوف سيجيل
- 175 . زهرة الجريس فلاديسلاف باخريفسكى